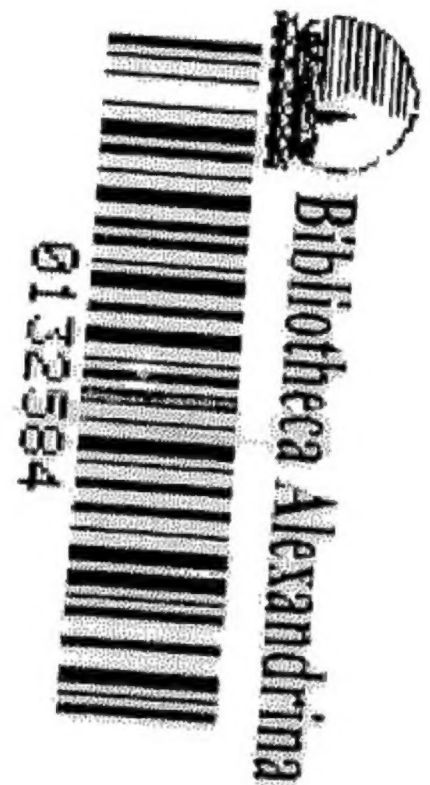


التربية والحضارة

التربية والحضارة في بلاد الشرق القديم

دكتور سعيد اسماعيل على

القاهرة ١٩٩٥



عالم الكتب
٣٨ ش عبد الخالق ثروت/ القاهرة

التربية والحضارة

التربية والحضارة في بلاد الشرق القديم

دكتور سعيد إسماعيل علي

أستاذ أصول التربية

كلية التربية - جامعة عين شمس

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مقدمة

فى العام الجامعى ١٩٩٢/٩١ ، كلفت لأول مرة ، بتدريس (تاريخ التربية) كمادة متخصصة لطلاب الدبلوم الخاص بتربية عين شمس .

وقد خطرت لى فكرة مؤداها أن هؤلاء الطلاب باعتبارهم طلاب (دراسات عليا) يمكن أن يقوموا ببناء عمل علمى كبير فى تاريخ التربية وفقا لخطوات متدرجة بتوجيه منى وتحت اشرافى ، عبر سنوات ، اذا كان فى العمر بقية .

ورأيت أن أحدد لكل عام (فترة تاريخية) تنقسم إلى مجالات أو محاور ، يكلف بكل منها عدد من الطلاب : قراءة ، ودراسة وبحثاً ، لأنتخب وأركب من بين ما يكتبونه دراسة حول هذه الفترة ، تكون (فصلاً) ، ثم يتكرر هذا الأمر كل عام ، بالنسبة لفترات أخرى ، حتى تستغرق تاريخ التربية كله.

واخترت بالفعل أن تكون الخطوة الأولى ، هى : التربية فى حضارات الشرق القديم ، وقسمت هذا الموضوع إلى جوانب : التربية البدائية / التربية عند البابليين والآشوريين / التربية فى الهند / التربية فى الصين التربية عند بنى إسرائيل ، مع وعى - بطبيعة الحال - بأن هناك مناطق هامة أخرى . وفى مقدمتها : مصر / الجزيرة العربية / بلاد الفرس ، على أساس أن الأولى كتبت عنها فى كتابى (تاريخ التربية والتعليم فى مصر) وكذلك الثانية فى كتابى (تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية) أما الثالثة ، فتحتاج إلى عمل مستقل ، ربما مع حضارة أخرى وهى حضارة الرومان.

وانطلق الطلاب يقرءون ويجمعون المادة العلمية ويدرسون ويكتبون

لكن النتيجة لم تكن مبشرة بخير ملحوظ . بالطبع كانت هناك بعض الجهود الطيبة ، لكنها كانت تعد على أصابع اليد الواحدة ، بينما كان العدد الكلى يتجاوز الثمانين بقليل !

ومن هنا فقد عازمت فى العام التالى أن أحمل بنفسى مسئولية القيام بهذه الخطوة العلمية ، وبالفعل خصصت هذا العام لكتابة دراسة خاصة بهذه الفترة، ظهرت فى هذا الشكل المسمى (مذكرة).

وفى العام الثالث ١٩٩٤/٩٣ أتممت بحمد الله وفضله دراسة ثانية عن التربية فى الحضارة اليونانية.

فلما أصبحنا على أبواب العام ١٩٩٤/١٩٩٥ ، اتسعت آفاق المشروع أمام ناظرى ، واستقر فى ذهنى وفى نيتى أن يصدر على هيئة (كتيبات) يحمل كل منها فترة معينة ، أو منطقة بلداتها ، فى الوقت الذى ألح فيه قطار العمر مسرعاً ، مقترباً من محطة النهاية ! حتى رأيت نفسى - ربما لأول مرة - متمنياً طول العمر لأتمم هذا المشروع .

وأعدت النظر فى الدراسة الأولى مزيداً فيها ما استجد من قراءات ، وبدأت فى اعدادها بالفعل فى الشكل الحالى .

ثم اذا بى أشعر بأن هذه السلسلة تحتاج إلى خطوة أسبق ، تتمثل فى مناقشة عدد من القضايا والمسائل الخاصة بعملية التأريخ بصفة عامة والتأريخ للتربية بصفة خاصة ، كانت ارهاصاتنا تتمثل فى تلك الملاحظات المنهجية التى أثبتتها فى الصفحات الأولى لكتائى تاريخ التربية والتعليم بالاشتراك مع د. سعد مرسى أحمد سنة ١٩٧٢ ، وأعلنتها فى كتابى المنفرد (تاريخ التربية والتعليم فى مصر) سنة ١٩٨٥ .

لكنى لم أرد أن أوجل اخراج العمل الحالى حتى تتم هذه الخطوة

السابقة ... وهكذا يجرى هذا العمل باعتباره (الكتاب الثانى) ، حيث أقوم حالياً بأعداد دراسة تمثل الكتاب الأول ، عن المقدمات والأسس المنهجية للدراسات التاريخية فى التربية .

ولأن الدراسة الخاصة بالتربية والحضارة اليونانية جاهزة ، حيث انتهيت منها فى العام الماضى ، فسوف أشرع فى صياغتها بعد الانتهاء من العاملين المشار إليهما .

هل سوف يمتد بى العمر حتى أكمل سلسلة التأريخ للتربية ؟ إنه السؤال الأبدى الذى لا يعلم اجابته إلا الله وحده ، ومع ذلك ، فلا بد أن نعمل ونتجز ، طالما نحن على قيد الحياة .

نسأل الله العلى القدير أن يوفقنا إلى مزيد من الجهد العلمى الذى يشكل لبنات فى بناء صرح الفكر التربوى .
إنه نعم المولى ونعم النصير .

د . سعيد اسماعيل على

مصر الجديدة فى ١٩ / ١٠ / ١٩٩٤

فهرست

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : التربية البدائية	٣ - ٢٨
ماذا نقصد بالتربية البدائية ؟	٣
الثقافة البدائية	٧
العقلية البدائية	١٣
الوضع التربوي	١٧
هوامش الفصل الأول	٢٦
الفصل الثاني : التربية في العراق القديم	٢٩ - ٦٨
الحضارة السومرية	٣٢
أكّد	٤٢
البابلون	٤٥
الآشوريون	٥٧
العلاقة بين الحضارة العراقية والحضارة المصرية	٦٣
هوامش الفصل الثاني	٦٥
الفصل الثالث : التربية الهندية	٦٩ - ٩٦
المعالم الرئيسية للتطور الحضاري	٦٩
الفكر الفلسفي	٧٣
الكتابة	٧٩

٨١ التربية البوذية
٨٤ الطريق
٨٧ التربية لدى الهنود
٩٤ هوامش الفصل الثالث
٩٧ - ١١٩	الفصل الرابع : التربية الصينية
٩٧ الاطار الحضارى
١٠٠ الفلسفة الصينية
١٠٧ الكتابة
١٠٩ معالم تربوية
١١٨ هوامش الفصل الرابع
١٢٠ - ١٥٧	الفصل الخامس : التربية عند بنى إسرائيل
١٢٠ مقدمة
١٢١ النشأة
١٢٦ التكوين السياسى والاجتماعى
١٣٤ معالم تربوية
١٤٦ التصور القرآنى لأخلاق بنى إسرائيل
١٥٥ هوامش الفصل الخامس

الفصل الأول التربية البدائية

ماذا نقصد بالتربية البدائية ؟

(البداء) هو أول كل شيء ، و (البداء) هي أول الحال والنشأة ، و (البدائي) - بضم الباء - (في علم الاجتماع) ، الطور الأول من أطوار النشوء . ويشير المصطلح ، بوجه عام إلى الفجاجة ، وانعدام التطور ، والخشونة ، وتدنى النوعية .^(١)

(أ) وفي بعض السياقات يعنى المصطلح أيضاً عدم كفاية الوسائل بالنسبة للأهداف ، سواء منها الصريحة أو المفهومة ضمناً . ولهذا علاقة بالمجال التكنولوجى خاصة ، ولكن أيضاً بالظروف الموجودة داخل مجتمع ما ، وبالمفاضلة بين الثقافات ، فالعصا التى تستخدم للحفر - مثلاً - بدائية ، بالمقارنة مع آلة مثل (التراكتور) والمضخة التى تشغل باليد (بدائية) بالمقارنة مع شبكة للمياة تستخدم الأنابيب والحفريات ، والخيمة أو الكوخ (بدائيان) بالمقارنة مع (البيت) ، والنار العادية ، أو الطباخ الذى يستخدم الخشب (بدائيان) بالنسبة لآلات الطبخ الغازية أو الكهربائية ، وهذه الأخيرة توصف بالبدائية يوماً عندما تقارن بآلات تستخدم الطاقة الشمسية أو الذرية ، وهكذا ، والطرق (البدائية) متعبة وبطيئة بالمقارنة مع تلك التى تتصف بالسرعة وتوفر أقصى درجات الراحة للمسافرين .

(ب) ويستخدم المصطلح أحياناً ليؤدى معنى (البساطة) أو (عدم التمايز) أو للتعبير عن النقيض العام (للتعقيد) . وعلى العكس من ذلك قد يفيد معنى (التعقيد) ، أى ضد (البساطة) وللتعبير عما يتصف بالتمايز فيما يتعلق بصفات تقوم سلبياً ، واللغة هنا هى أوضح مثال

على ذلك ، فقدفقدان العلامات الإعرابية فى اللغة الإنجليزية ينظر إليه أحياناً باعتباره حركة باتجاه الوضوح (أى أن البساطة هنا تقوم إيجابياً ، وذلك فى تعامل الاحتفاظ بالعلامات الإعرابية فى لغة كالألمانية .

ج - قد تعنى الكلمة ، طبقاً لاشتقاقها اللغوى ، نقطة فى الزمان (مبكرة) أو الأولى وأحياناً تستعمل للدلالة على ما هو (أصلى) أو (قديم) أو (من المنبع الصافى) ، أى أنها تتصل ببدايات الأشياء بفجر المجتمع الإنسانى ، كما أنها تشير ، ضمن الإطار الفكرى الذى يؤمن بسير التطور الإنسانى فى خط مستقيم (وهو إطار مازال واسع الانتشار) ، إلى مجتمعات سحيقة فى القدم لا يمكن التعرف عليها إلا من خلال الحفريات الأثرية وكذلك إلى مجتمعات معاصرة يقال إنها تشبه القديمة فى عدد من الأمور المهمة كاستخدام الآلات الحجرية والاقتصاد القائم على الصيد والزراعة^(٢)

وعلى هذا فإن التربية البدائية هى ذلك الطور الأول من التربية الذى شهدته الحياة البشرية فى أوائل سيرتها ، وقبل نشوء الحضارات القديمة وبالتالى ، فمن الناحية الزمنية فهى تشمل العصر الحجرى القديم ، والعصر الحجرى الحديث ، ومرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية حيث بدأت الحضارات القديمة .

لكن « التربية البدائية » يمكن ألا يقف معناها عند الحدود الزمنية إذ قد تعبر عن (نمط من الحياة) قد نجده فى قرون حديثة ، كالقرنين الثامن عشر أو التاسع عشر - على سبيل المثال - ويسمى نوع التربية القائم (بدائياً) حيث تتمثل فيه اتجاهات وفلسفة وأساليب التربية التى كانت قائمة فيما قبل التاريخ ، وهو الأمر الذى شوهد بالفعل فى بعض المناطق التى انعزلت طويلاً وقام بدراستها علماء التاريخ والآثار

والأنثروبولوجيا.

وهناك عدد غير قليل من العلماء فى الوقت الحاضر لا يميلون إلى عبارات مثل (متوحش) و « بربرى » و « غير متمدين » لوصف إنسان هذه الفترة الأولى من المسيرة البشرية ، كما يتجنب عدد من علماء الأجناس استخدام كلمة (بدائى) ليعبروا بها عن هذا الإنسان أيضاً ، ويكاد معظمهم يستخدم عبارة « إنسان ما قبل التاريخ » للتعبير عن الإنسان الذى عاش قبل اختراع الكتابة منذ خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة ، ولعل من المهم ألا نعاذل الإنسان ما قبل التاريخ (بالإنسان البدائى) الذى أشرنا إلى وجوده فى العصر الحاضر فى بعض جهات العالم لمجرد أن هذا الإنسان الأخير لا يعرف الكتابة (٣).

ومع هذا فإننا لا نستطيع إغفال استخدام كلمة (بدائى) إغفالاً تاماً فقد استخدمها المؤرخون وعلماء العلوم الاجتماعية على نطاق واسع مما جعلها مستمرة الظهور فى كثير من الحلقات العلمية . يضاف إلى هذا أننا لانعرف كثير أعن ثقافة إنسان ما قبل التاريخ ، إلا بما نستطيع أن نستدله من الدراسة المباشرة لثقافات البدائيين فى الوقت الحاضر (٤).

ولكن هناك بعض المزالق فى استخدام اصطلاحات مشحونة بالأفكار الخاطئة ، فالإنسان البدائى ، أى إنسان ما قبل التاريخ ، غالباً ما يتصوره الناس وحشاً غائر الجبهة ، صغير الدماغ ، ضخم الرقبة ، خائر الركبتين ، متصفاً بتلك العادة القبيحة - عادة جبر النساء من شعورهن (٥) ! والحزن فى الأمر أن هذه الأفكار انتشرت بين عامة الناس الأبرياء بفعل كبار العلماء فى الماضى . ولاشك أنه كانت هناك جبهات غائرة ، ولكن لا بد من القول أيضاً أنه كانت هناك خلف تلك الجبهات الغائرة أدمغة بالغة القوة ، وأن تلك الأدمغة فى حالة إنسان

النياندارتال ، كانت أكبر حجماً من آدمغتنا نحن ! أما الوحش ، وصاحب الرقبة الضخمة ، وذلك الذى يجبر النساء من شعورهن ، فكلهم من صنع خيال الذين رغبوا أن يروا تلك الأمور على ماهى عليه ، لا على ماينبغى أن تكون عليه، أو على ما يعتبره مرغوباً فيه .

إن من نتائج الاعتقاد بأن الإنسان البدائي كان أقل تطوراً منا عدم القدرة على إدراك أن إنسان ما قبل التاريخ قبل خمسة عشر ألف سنة كان فى بعض نواحي حياته قادراً على انجاز أمور عجز الإنسان منذ ذلك الحين عن التفوق عليه فيها. ومن بين الأمثلة البارزة على ذلك فن ما قبل التاريخ ، خاصة من العصر الحجري القديم الأعلى . فعندما اكتشف هذا الفن فى أوائل هذا القرن عزى أولاً إلى فنانين من العصور الحديثة زعم أنهم ، لسبب يصعب فهمه ، زحفوا داخل قبو طبيعي وزينوا سقفه على غرار ما يكل أنجلو فى كنيسة الستين . ولكن لم يعد بالامكان مقاومة الأدلة بعد أن تمت اكتشافات أخرى فى أعماق الكهوف المظلمة تحت ظروف تدل على بعد صحيح فى الزمن ، فاعترف لإنسان ما قبل التاريخ بكونه خالق تلك الأعمال الفنية المدهشة من الرسم والنحت والحفر . وكما قال السير هربرت ريد : « إن أفضل رسومات كهوف التامير، ونيو (Niaux) ولاسكو تكشف عن مهارة لا تقل عن مهارة بيزانيلو أو بيكاسو »^(٦) وكل من رأى الرسوم الأصلية ، بل حتى نسخاً مأخوذة عنها ، سيوافق على أن هذا القول غير مبالغ فيه ، فبالإضافة إلى المهارة الفنية التى اتصف بها الفنانون القدماء ، فإن أعمالهم تظهر قدراً من الحيوية وقوة التعبير قلّ نظيره فى أى عصر من العصور .

ولأن هذه التربية جزء من ماضٍ صحيح ، بعيد فى القدم ، فقد

تبدو دراستها « ترفاً » و « مضيعة للوقت » للوهلة الأولى .

لكننا إذا استرجعنا معنى التربية البدائية وربطنا هذا المعنى بتلك الحقيقة التي ترجح أن الوعي ببدايات الظاهرة ، وأشكالها الأولى يتيح فهمها أكثر وضوحاً ، لأدركنا قيمة دراسة التربية البدائية .

ولعلنا هنا نضرب مثلاً بما يفعله علماء الاجتماع ، فهم إذ يعكفون على دراسة أحوال المجتمعات البدائية ، يستطيعون - بقدر كبير من احتمالية النجاح - أن يفسروا التنظيمات والأفكار الاجتماعية المختلفة المعاصرة التي قد يؤدي تعقدها الحالي وتشابكها إلى تعقيد دراستها ، فتجيء دراسة الأشكال الأولى والبذور الأولية لتلقى الضوء على (البدايات) وكيف تطورت حتى أصبحت على ما هي عليه في عصرنا الراهن .

الثقافة البدائية؛

كان الصيد هو الصورة الأولى التي دارت في داخلها أنشطة الإنسان القديم حيث كان أمراً تتعلق به الحياة أو الموت ، ذلك لأن الصيد لم يكن سبيلاً إلى القوت وكفى ، بل كان كذلك حرباً يواد بها العظمانيون والسيادة .

ولم يكن الإنسان مبتكراً حين اصطنع الصيد وسيلة لعيشه ، ولو حصر الإنسان جهده في نطاق الصيد ، لما كان أكثر من حيوان أكل اللحم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان ، وإنما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق ، إلى مرحلة أكثر اطمئناناً وأوثق اتصالاً واطراداً ، ونعنى بها حياة الرعى التي اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن^(٧) .

وليس متاحاً لنا أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة (الحبوب) بحيث يتحول جمعها إلى بذرها فى الأرض ، فهذه هى أسرار التاريخ التى يصعب علمها علم اليقين . والمرحلة التى تلت ذلك فى تقدم الفلاحة وأدواتها مرحلة استعملت فيها الفأس فى الحرث .

ولكن بدأت إنسانية الإنسان بالكلام ، وبدأت المدنية بالزراعة فقد بدأت الصناعة (النار) التى لم يخترعها الإنسان اختراعاً ، بل الأرجح أنه قد صنعت له سنة الله فى كونه هذه الأعجوبة باحتكاك أوراق الشجر أو غصونه ، أو بلمعة من البرق ، أو باندماج شاعته المصادفة لبعض المواد الكيماوية ، ولم يكن لدى الإنسان فى ذلك إلا الذكاء الذى يقلدهه الطبيعة ويزيدها كمالاً ، ولما أدرك الإنسان أعجوبة النار ، استخدمها فيما لا حصر له من الصور (٨) .

على أن الإنسان ، اذ هو لم يزل فى مراحل الصيد والرعى والزراعة ما انفك مخترعاً ، فكان الإنسان البدائى يشهد زناد عقله لعله يجيب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية فى وجهه من مسائل ، فقد كان الإنسان ، بادية ذى بدء ، راضياً - فى ظاهر الأمر - بما تقدمه له الطبيعة - كان راضياً بشمار الأرض طعاماً ، وبجلود الحيوان وفرائه لباساً ، وبالكهوف فى سفوح التلال مأوى ، ثم تلا ذلك - فيما نظن - أنه أخذ فى تقليد آلات الحيوان وصناعته ، فلقد رأى القرد وهو يقذف بالحجارة ، وثمار الفاكهة على أعدائه ، أو يكسر الجوز والمخار بالحجر ، ثم رأى كلاب الماء تبنى لنفسها سدوداً ، والطيور تهبى الأعشاش والعرائس ، والشمبانزى تقيم بيوتاً شبيهة جداً بما يقيم الإنسان من أكواخ ، فأخذ من فوره يعد لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان ، بل تفوقها (٩) .

وكان النبات أيضاً ، الذى يحيط بالإنسان البدائى ، مصدراً لكثير من الآلات . وبينما كانت الزراعة تنشئ (المدنية) انشاء ، فإنها إلى جانب انتهائها إلى نظام (الملكية) ، انتهت إلى نظام (الرق) الذى لم يكن معروفاً فى الجماعات التى كانت تقيم حياتها على الصيد الخالص (١٠).

وإنه لبعيد الاحتمال أن يكون الإنسان الأول قد عاش فى أسرات متفرقة ، حتى فى مرحلة الصيد ، لأن ضعف الإنسان فى أعضائه الفسيولوجية التى يدافع بها عن نفسه كان قميئاً أن يجعل منه فريسة للكواسر التى لم تزل تجوس فى مناكب الأرض ، فالعادة فى الطبيعة أنه إذا ما كان الكائن العضوى ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد ، لجأ إلى الاعتصام بأفراد من نوعه ، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء فى عالم تمتلئ جنته ، بالأنياب والمخالب والجلود التى يستحيل نقبها (١١) . وأغلب الظن أنه قد كانت هذه هى حالة الإنسان أول أمره ، فأنقذ نفسه بالتماسك فى جماعة الصيد أولاً ، فالقبيلة ثانياً ، فلما حلت العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل القرى كمبدأ للتنظيم الاجتماعى ، فقدت القبيلة مكانتها التى كانت تجعل منها قوام المجتمع ، وحل محلها فى أسفل البناء الأسرة .

والشعوب البدائية وإن تباينت فى كثير من الأمور ، فإنها تتشابه فى نقطة أساسية مهمة ، هى نسبة الحياة إلى الجماد أثناء تفسيرهم للبيعة المحيطة بهم ، ذلك أن الرجل البدائى يعتقد أن وراء كل قوة مادية قوة أخرى غير مادية هى القوة الروحية أو (المثل) الذى يسيطر على كل كائن مادى ، ويعلل وجوده ويفسر مقاومته لإرادة الإنسان ، ويجعل منه مفسراً لشعور لا يختلف فى نوعه عن ذلك الشعور الذى يمتاز به الإنسان

. فعالم (الأشياء) هو عالم روحي شبيه بعالم الكائنات المادية . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير الظواهر العادية للحياة وللطبيعة . أما الأحداث غير العادية فيمكن تفسيرها على هذا المتوال ، ولكن يستدل منها على تدخل بعض الأرواح الطاهرة ، اذا كانت نتائج الأحداث طيبة ، وعلى تدخل الأرواح الخبيثة اذا ارتبطت بنتائج ضارة (١٢).

واعتقد الرجل البدائي - فى إيمان راسخ - أن رمز الشيء ، مثل رمز الروح ، فهو لا يمثل الروح ، بل يحتوى على كنهها ، فرمز الشيء هو الشيء ذاته ، فاذا حطم فرد تمثالاً لروح أو اله ، فهو بذلك قد حطم الاله نفسه . ويلاحظ أن رسوم الروح من المحرمات ، وكذلك التلغظ بها. ، وإنما أعطى هذا الشرف العظيم لرجل الدين ، وفى لحظة مقدسة (١٣)

والبدائي كان يوزع نشاطه على العمل والعبادة ، وبواسطتهما معا ، يتوصل إلى إرضاء شهواته التى تقتصر فى البداوة على الثنتين : الجوع - والحب . ونعنى بالجوع هنا ، كل الرغبات الجسمانية التى لها علاقة بالشخص نفسه ، كالعطش والحاجة إلى الملبس والمأوى والراحة الخ ، ونقصد بالحب : كل ميوله التى لها ارتباط بالآخرين كحب الظهور وملاذ الأسرة ... الخ ، فالأولى هى منبع كل الاحساسات النفسية ، والثانية كل الميول الاجتماعية ، فبالعمل أضيّع جوعه (الجوع كما عرفناه) هو وأسرته وبالعبادة وقاهم جميعا من أخطار تلك القوى التى يتخللها فيما وراء الظواهر الطبيعية والتى يعجز بقوته عن دفعها .

فقواعد العمل لديهم ، كانت أساس الأخلاق ومبدأ السياسة .

واعتقاداتهم فى العبادة ، كانت مبدأ الدين أولاً ، وبعد ذلك صارت أساساً للعلوم والفنون والفلسفة .

فى العمل يستعمل الإنسان الأشياء ، وفى العبادة (روح) أو أسماء تلك الأشياء .

أما عن أفكار الإنسان قبل التاريخ ، فإننا لا نعرف الكثير عنها ، ولا عن معتقداته ولغاته وقيمه ، غير أن الكشوف الأثرية توضح أنواع الأشياء والآلات التى ابتكرها أسلافنا ، كما توضح طرائقهم فى استخدامها ، ومآربهم فيها ، وتوضح أيضاً أنهم استخدموا الاشارات والرموز للتعبير عن آرائهم ، فدراسة اللغات تبرز إلى الضوء كلمات قديمة هى أشبه بحفريات دالة على الأشياء أو الأفكار الأولى ، ثم إن علماء الأجناس البشرية أطلعونا على العادات والتقاليد للأقوام البدائيين الذين عاشوا معهم وتحت بصرهم (١٤) .

ويلاحظ أن هذا المجتمع البدائى كان على قدر كبير من التخصص فى حفظ الحياة البشرية لا لسبب إلا لأنها فى غاية البساطة ، كما أنه حل مشكلة حياته ، وربما كان هذا هو السبب الأول فى أن هذه المجتمعات ليست لها صفحة فى سجل التاريخ ، ولا أثر للمناطق التى سكنتها فى الأطلس التاريخى (١٥) وإن دل هذا على شىء ، فإنما على أن التاريخ معنى - غالباً - بتسجيل الأحداث والصراعات ، وقلما يلتفت إلى الحياة التى تمر هادئة بسيطة لا أثر لإشكالات أو تعقيدات .

وقد عرف البدائيون شيئاً من الطب ، كالعلاج بالأعشاب والعقاقير ، وعرفوا طرقاً بسيطة لتجبير العظام ، كما أجروا عمليات جراحية فى بعض الجماجم . وتأكد الأخصائيون من أنها جماجم لرجال أحياء من عاشوا قبل التاريخ ، ولم تجر على جماجم فارغة لأغراض دينية كما قد يظن البعض ، لأن الخرق الذى يثقب فى جمجمة رجل حى يميل إلى الالتئام بذاته ، وفى الجماجم التى وصلتنا ، نستطيع أن نرى فى

وضوح نمو عظمة جديدة (١٦).

والأرجح أن يكون أول من اهتمن حرفة الطب هن من النساء ، لا لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال فحسب ، ولا لأنهم جعلن من فن التوليد - أكثر مما جعلن من مهمة الارتزاق - أقدم المهن جميعاً فحسب ، بل لأن اتصالهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، فأتاح لهن ذلك علماً أوسع بالنبات ، ومكنهن ذلك من التقدم بفن الطب ، وميزته عن التجارة بالسحر التي كان يقوم بها الكهنة ، فمنذ أقدم العصور ، حتى عصر يقع في حدود ما تعيه ذكارتنا ، كانت المرأة هي التي تباشر شفاء المرضى ، ولم يلجأ المريض عند البدائيين إلى طبيب يشفيه أو إلى ساحر إلا إذا أخفقت المرأة في أداء هذه المهمة (١٧).

أما الرياضيات ، فإن أصل لغة العدد هو التسجيل على هيئة خطوط كان يحفرها الإنسان القديم منذ عصر ما قبل التاريخ على السطوح الصلبة ، ثم تحولت إلى علامات مقروءة ترسم على السطوح اللينة (مثل الطين).

وربما كانت بداية الفلك في قياس الزمن بحركات الأجرام السماوية ، وكلمة (مقياس) نفسها - فيما يقطن ديورانت - (في اللغة الانجليزية Measure وكلمة شهر (MONTH) بل ربما كانت كلمة إنسان (MAN) أيضاً وهو الذي يقوم بالقياس كل هذه الكلمات ترد - هكذا يقطع مؤرخنا - إلى أصل لغوي معناه القمر (MOON) ذلك لأن الناس قاسوا الزمن بدورات القمر قبل قياسه بالأعداد بزمان طويل (١٨).

وهذا الرأي لا يتجاوز - في رأينا - مرحلة (الظن) اذ لا يمكن هذا الدليل الذي يسوقه من خلال بعض تشابه في الكلمات المشار إليها ، والا فماذا عن المناطق الأخرى وخاصة وديان الأنهار حيث قامت

الحضارات الأولى وليس فى لغاتها مثل هذا التشابه؟

ولم يكن الإنسان البدائى يصوغ شيئاً من قوانين علم الطبيعة ، وإنما كان يكتفى بممارستها من الوجهة العملية ، فلئن لم يكن فى مقدوره أن يقيس مسار المقذوف فى الفضاء ، إلا أنه كان يستطيع أن يصوب سهامه نحو الهدف فلا يخطئ ، ولئن لم يكن لديه رموز كيميائية ، إلا أنه استطاع أن يميز بلمحة سريعة ، أى النباتات (سام) وأىها طعام ، بل كان يستطيع أن يستخدم الأعشاب استخداماً دقيقاً فى شفاء أمراض البدن. (١٩)

العقلية البدائية

كشفت الدراسات التى قام بها كثير من علماء الانثروبولوجيا لقبائل أفريقية وقبائل أخرى فى بعض المناطق الآسيوية وفى أمريكا الجنوبية عن صورة يمكن الاعتماد عليها - بحذر شديد - فى محاولة رسم صورة لما كان عليه نمط التفكير فى تلك الفترة التى نحن بصدددها ، ذلك أن هذه القبائل إنما هى (جيوب) انعزلت عن ركب الحضارة ومثلت ما يمكن تشبيهه (بالحفريات) التى تمكن العلماء من الوقوف على بعض جوانب من ماضٍ سحيق فى القدم.

وتشير نتائج هذه الدراسات إلى أن العقل البدائى إذا رأى نفسه أمام شىء يهمه أو يقلقه أو يخيفه ، فإنه لا يسلك تجاهه نفس المسلك الذى يسلكه عقلنا ، بل يسير على الفور فى طريق مختلف عن طريقنا ، وذلك لأن حسنا الدائم بوجود الضمان العقلى قد بلغ درجة من الاستقرار لاجتماعنا تنوهم إمكان اختلاله ، فإذا فرضنا أن ظاهرة لانعرفها قد ظهرت أمامنا بصورة مفاجئة وأن أسبابها تخفى علينا فى بادئ الأمر خفاء تاماً ، فإن ذلك لا يزلزل اقتناعنا بأن جهلنا بها أمر مؤقت وأن هذه

الأسباب موجودة بالفعل ويمكن اكتشافها إن عاجلاً وإن آجلاً .
وهكذا يمكننا أن نجزم بأن الطبيعة قد أصبحت فى الوسط الذى نحيا فيه
موضرباً للتأمل منذ البداية ، وإنها نظام وعلة كالعقل الذى يفكر فيها
ويصول فى مضمارها . ويشير نشاطنا اليومى فى ألفه تفاصيله إلى فقتنا
التامة فى عدم قابلية القوانين الطبيعية للتفان . (٢٠)

أما مسلك العقلية البدائية فمختلف عن ذلك المسلك كل
الاختلاف لأن الطبيعة التى تعيش فى أحضانها تمثل أمامها فى مظهر
مختلف تمام الاختلاف ، فجميع الأشياء والكائنات التى تتضمنها
متشابكة مختلطة بأمور غيبية . ومن هذا التشابك يتكون بناؤها ونظامها
وهو الذى يبدأ بالظهور أمام انتباه البدائي ويستوقفه ، فإذا استرعت
اهتمامه إحدى الظواهر ولم يقتصر على ادراكها بطريقة سلبية خالية من
رد الفعل ، اتجه ذهنه فوراً ، وبما يشبه أن يكون حركة عقلية عكسية
إلى وجود قوة خفية مربية تجعل تلك الظاهرة مظهرًا من مظاهرها .

ولتختبر مثلاً من عشرات الأمثلة التى يعرضها علينا الباحثون (٢١) ،
تعتمد الجماعات البدائية كلها إلى تفسير الموت بغير الأسباب الطبيعية ،
فإذا رأى أحدهم شخصاً يموت ، بدا له هذا الحادث وكأنه يقع للمرة
الأولى ، وأنه لم يشاهد مثله من قبل . وهنا قد يتساءل الإنسان المعاصر
: هل من المعقول ألا يعرف هؤلاء الناس أن كل حى مصيره إلى الموت
إن عاجلاً وإن آجلاً؟ والواقع أنه البدائي لا ينظر إلى الأشياء من هذه
الزاوية قط ، فهو يعتقد أن الأسباب التى تؤدي بالضرورة إلى موت كل
شخص بعد عيشه عدداً من السنين مثل ضعف الشيخوخة ، وبلين
الأعضاء وتخاذلها عن أداء وظيفتها ليست مرتبطة بالموت ارتباطاً ضرورياً .
أليس يرى أمامه شيوعاً خائري القوة يستمرون على قيد الحياة ؟

ولذلك إذا حدث الموت أرجعه إلى فعل قوة غيبية ، هذا إلا أنه يعتقد أن ضعف الشيخوخة نفسه لا يرجع إلى ما نسميه نحن بالأسباب الطبيعية ، بل أيضاً إلى فعل القوى الخفية كجميع الأمراض الأخرى ، والخلاصة أنه إذا كان البدائي لا يعبر أسباب الموت الطبيعية أى التفات ، فذلك لأنه يعرف سببه مقدماً ، ومادام يعرف لماذا حدث ؟ فلا يهمه بعد ذلك أن يعرف كيف حدث ؟ فنحن هنا أمام مبدأ سابق التقرير ليس للتجارب عليه أى سلطان .

ولا تعرف العقلية البدائية شيئاً يسمى المصادفة ، كما أنها من جهة أخرى لا تبحث عن الشروط التى تعمل على وقوع إحدى الحوادث أو امتناعها . ويترتب على ذلك أن هذه العقلية تتلقى الأشياء المفاجئة أو غير المتوقعة أو التى تخالف المعتاد بالانفعال أكثر مما تتلقاها بالدهشة . وعلى ذلك فإن فكرة (المفاجيء) أو (غير المعتاد) مكلفة جداً للعقلية البدائية ، وإن لم يكن لها لديها نفس التحديد الذى لها فى ذهننا (٢٢) ، فهى عندها إحدى الأفكار العامة المشخصة على السواء .

وقد يكون الشيء المفاجيء كثير الوقوع نسبياً . ولما كانت العقلية البدائية منصرفة عن الأسباب الطبيعية ، فإنها تستعيز عنها - إذا جاز لنا هذا التعبير - ييقظتها التامة والصفات الدائم إلى الدلالة الغيبية التى يمكنها أن تستخرجها من كل ما يصدمها . ولذلك كثيراً ما لاحظ الباحثون أن البدائي الذى لا يدهش لشيء فى الحقيقة يعد فى نفس الوقت سريع القبول للانفعال ، فانهدام حب الاستطلاع العقلى ، مصحوب عنده بحساسية مرهفة نحو ظهور أى شيء يباغته . (٢٣)

ولعلنا بذلك نصبح أقدر على فهم السبب الذى من أجله تهمل العقلية البدائية البحث عما نسميه بأسباب الظواهر فعلم حب الاطلاع

هذا لا يرجع إلى شلل عقلى ، ولا إلى ضعف فى القوى العقلية ، بل إن ذلك فى الحقيقة لا يعتبر عدماً إذ أن عدم ، على حد تعبير الفلسفة المدرسية ، يخلو من علة عجزية أو سلبية. أما علة ما لدينا فذات حقيقة ايجابية ، فهو نتيجة مباشرة وضرورية لهذه الحقيقة الواقعة : وهى أن البدائيين يعيشون ويفكرون ويحبون ويتحركون ويمثلون فى عالم لا يتفق مع عالمنا فى عدد كبير من الوجوه ، ولذلك نرى أن كثيراً من الأسئلة التى تواجهنا بها التجارب غير موجودة بالنسبة إليهم ، لأن لديهم لها جواباً مجهزاً من قبل أو بالأحرى لأن نظام تصوراتهم من شأنه ألا يجعل لهذه الأسئلة أية أهمية فى نظرهم. (٢٤)

ومبارات أخرى ، تتوقف حياة البدائيين العقلية (وبالتالى أحاسيسهم) على هذه الحقيقة الجوهرية البدائية وهى أن العالم المحسوس ، والعالم الآخر لا يكونان فى تصوراتهم إلا شيئا واحداً ، ومجموعة الكائنات غير المرئية لا ينفصل عندهم عن مجموع الكائنات المرئية . وليست الكائنات الخفية فى نظرهم بأقل وجوداً ونشاطاً من الكائنات المرئية ، بل إنها أكثر منها تأثيراً أو إرهاباً ، ولذلك فهى تشغلهم أكثر من غيرها وتصرف عقولهم عن التبصر والتفكير فيما نسميه نحن بالمرجحات الموضوعية ، ولو إلى حد يسير . وما جدوى ذلك إذا كانت الحياة والنجاح والصحة ، ونظام الطبيعة وكل شيء آخر يتوقف فى كل لحظة على القوى الخفية ؟ وإذا كان فى وسع الجهد الإنسانى أن يفعل شيئا ، ألا يتبنى له أن ينقذه أولاً وقبل كل شيء فى تفسيره لمظاهر هذه القوى وتنظيمها ، بل فى استشارتها أيضاً ؟ الواقع أن هذه هى الطريقة التى حاولت بها العقلية البدائية أن تنمى تجاربها. (٢٥)

ويمكننا على وجه الإجمال ، أن نقسم التأثيرات غير المرئية التى تشغل العقلية البدائية بصورة دائمة إلى ثلاثة أقسام ، وإن كانت كثيراً ما تتداخل بعضها فى بعض . وهذه الأقسام هى أرواح الموتى . والأرواح بأعم معانى الكلمة ، أى تلك المؤثرات التى تجعل الحياة تدب فى الأشياء الطبيعية من حيوانات ونباتات وكائنات خامدة (الأنهار والصخور والبحار والجبال والأدوات المصنوعة ، الخ) ، وأخيراً الطلاسم والتعاويد التى تعد من فعل السحر. (٢٦)

ونعتقد أننا أصبحنا الآن على بينة من السبب الأساس الذى يجعل العقلية البدائية لاتبالي بالبحث عن العلل الثانية (الطبيعية) ، ذلك لأنها درجت على طابع من السببية يحجب عنها شبكة هذه الأسباب ، فالأسباب الطبيعية تكون عقداً أو مركبات تنبسط فى الزمان والمكان ، أما الأسباب الغيبية التى تتجه نحورها العقلية البدائية دائماً تقريباً ، فإنها غير مكانية ، بل غير زمانية أيضاً فى بعض الأحيان ، ولذلك نراها تستبعد مجرد التفكير فى هذه العقد والمركبات ، ولا يمكن لأثر هذه الأسباب الغيبية أن يكون إلا مباشراً ومؤزياً ، وحتى حينما ينتج هذا الأثر على بعد (كما فى حالات السحر) ، وحين لا تظهر نتيجته إلا بعد فترة ما ، فإن ذلك لا يمنع البدائيين من أن يتصوروا ، أو بتعبير أدق ، من أن يشعروا بأنه قد ينتج دون وسيط. (٢٧)

الوضع التربوى

وإذا كان قد تبين لنا أن حياة الإنسان البدائي قد دارت حول مطلبى الحياتين (العملية) و (الروحية) ، فقد أدى هذا إلى تشكيل العمل التربوى ليدور حول محورين. (٢٨)

أولاً - الإعداد الضرورى اللازم للحصول على ضرورات الحياة

العملية ولا يتضمن هذا الإعداد مجرد معرفة الطريقة التي بها يتحقق الغرض المعين ، كالصيد والقتل واستخدام الآلات وإعداد الجلود والبحث عن المأوى ، ولكن لابد مع ذلك من معرفة كيف يمكن القيام بمثل هذه الأشياء بالطرق المخصصة المتداولة بين أفراد الأسرة والعشيرة ، كما وضعها كاهنهم أو ساحرهم أو طبيبهم بحيث يتجنب إغضاب الأشياء التي لها السيطرة على هذه الأشياء المادية ، وبذلك يمكن تحقيق الرغبات المطلوبة.

ثانياً - تدريب الفرد على الطرق المقبولة ، أو على ضروب العبادة التي بواسطتها لابد لكل فرد من أفراد الجماعة أن يبدل قصارى جهده لترضية عالم الأرواح أو إثارة لإرادته الطيبة . وكل عملية من هذه العمليات تتطلب اتباع طريقة خاصة مناسبة لكل عمل ، عادياً كان ذلك العمل أو غير عادى وسواء أكان ذلك متصلاً بحياة الفرد أو بحياة الجماعة.

والناحية الأولى هي عماد التربية العملية ، والشطر الثانى هو عماد التربية النظرية لدى الإنسان البدائى .

وعلى هذا يمكن القول بأن غرض التربية البدائية هو إحداث توافق وانسجام بين الفرد وبينته المادية والروحية ، وذلك بوسائل ثابتة وطرائق معينة فى القيام بالأعمال سواء أكان فى حالة العمل المصلحى أو فى حالة العبادة . وقد فرض على الإنسان البدائى اتباع الطرق نفسها التى يتبعها المجتمع ، وكل من الفرد والجماعة ، لا يشعر بالفرد شعوراً واضحاً ، ولا يدرك أحد أن حقوقه ورفاهيته منفصلة تماماً عن حقوق المجتمع ورفاهيته . ومن أجل ذلك كانت تربية الإنسان البدائى مفروضة عليه بأدق تفاصيلها. (٢٩)

ويتم التعليم والتعلم فى المجتمع البدائى بصورة سهلة بسيطة ، لأن أدوات التعليم ووسائله فى متناول الفرد ، ويكون تعلمه من خلال الممارسة والتدريب عليها ، سواء كانت هذه الأدوات أو الوسائل رمحاً أو محراثاً أو قناعاً للأطفال . ويكون ما يتعلمه الطفل البدائى ذا مغزى اجتماعى ووظيفى فى حياته ، ومرتبطة ارتباطاً مباشراً بواقع حياته . (٣٠)

فالطفل البدائى يتولى تعليمه أبواه فيعلمانه - إلى جانب قيم وتقاليد القبيلة - أى الطرق يسلك ، وأى الشماريكل وأيها يترك . وعندما يصبح الإبن والده للصيد ، يتعلم صيد الحيوانات وقتلها تعلماً فعلياً ، كما أن أخته فى المنزل تتعلم رعاية الأسرة والمنزل بمشاركة أمها فى أداء واجباتها المنزلية .

وقد يذهب إلى قريب له أو إلى خبير فى قبيلته ليتعلم كل ما يمكنه من نشاط مطلوب ، كالقنص وصيد الأسماك ونصب الفخاخ وغيرها . وهو يتعلم هذه الأشياء لأنه يدرك علاقة التعليم بحياته الحاضرة والمستقبلية ، ومن ثم يكون التعليم عن رغبة حقيقية لديه . وأنه يدرك أهمية ما يتعلمه ، ويدرك أيضاً ما يعنيه ذلك من أجل بقائه واستمرار حياته . (٣١)

وفيما قبل المدرسة ، لم يكن هناك هيئات اجتماعية محددة ومخصصة للإشراف على التربية فى المجتمعات البدائية ، وكانت الأسرة ، وهى الوسيط الاجتماعى الأساسى ، هى نفسها الوسيط التربوى الوحيد فى أولى مراحل التطور الإنسانى . وكان هذا يعنى أن الرقابة على العملية التربوية كانت فى يد الأسرة ، فكان عليها مسئولية تدريب الأطفال على العرف والتقاليد المقبولة من الجماعة

القبيلة . وكان لبعض الأشخاص في كثير من القبائل وظائف خاصة بهم . وقد كون أولئك الأشخاص ، وهم عادة كبار رجال القبائل ورجال الطب والسحر ورواة الأخبار، طبقة كهنوتية تشرف على تعليم الأطفال ، وهناك مايدل على أن نوعاً خاصاً من التدريب كان يخضع له كل من ينضم لطبقة الكهنة . وكان هذا التدريب يشمل عادة التعرف على بعض المهارات والمعارف الخاصة المتعلقة بالسحر والترايم والطقوس والحفلات . وكان لبعض القبائل بالإضافة إلى ذلك ، جماعات تقوم بحرف ووظائف مختلفة كبناء البيوت ، وتشكيل الأشياء من المعادن ، وصناعة الآلات والملابس ، ووشم الناس . وكانت هذه الجماعات تدرب الصغار على التعرف على مهارات وأسرار هذه الحرف المختلفة . (٣٢)

وكثيراً ما كانت بعض القبائل تقيم طقوساً لتدشين المراهقين أو صغار الشباب قبل قبولهم في مجمع الكبار فيها . ورغم أن ممارسة طقوس التدشين لم تكن أمراً شائعاً بين كل القبائل إلا أنها كانت تمثل نوعاً هاماً من إشراف الكبار على تربية الصغار . (٣٣)

وكانت بيئة الإنسان البدائي ، ثابتة نسبياً . ولم تكن تتطلب القدرة العقلية ، بل تتطلب الشجاعة وتكامل الشخصية ، فكان الوالد البدائي يركز اهتمامه في بناء شخصية ولده كما تركز التربية الحديثة اهتمامها في تدريب القوة العقلية ، فقد كان يعنيه أن يبنى رجلاً ، لا أن يكون العلماء ، ومن هنا كانت طقوس ادماج الناس في القبيلة ، تلك الطقوس التي كانت في الشعوب البدائية تعلن بلوغ الناس من النضج وتعترف له بعضوية الجماعة ، ترمي إلى اختبار شجاعته أكثر مما تقصد إلى قياس معرفته ، وكانت مهمتها أن

تعد الشباب لهشاق الحرب وتبعات الزواج ، وهى فى الوقت نفسه فرصة تتاح للكبار أن يمرحوا . (٣٤)

والتربية الفكرية لم يكن من شأنها أن تقدم لقدرات الناشئ إعداداً منهجياً عقلائياً ، غير أنها كانت تشحذ القدرات والمهارات الضرورية التى يستلزمها طراز الحياة لدى تلك الأقوام البدائية ، فالآباء ، وقد عرفوا أن عليهم أن يصارعوا شتى الأخطار ، يدركون بالنظرة والغريزة بأن عليهم أن يتعهدوا حواس أطفالهم وأن ييسروا لها ما يشحذها ويذكئها . والحق أن أول ما يدهشنا لدى الأقوام البدائية ، ذلك الأرهاف الرائع فى الإدركات الحسية ، فالسمع عندهم مرهف ، والبصر حديد ، حتى أن بعض القبائل المتنقلة تستطيع أن تتوسم عمر أشخاص يملحون بها عابراً ، بل أن تتفرس جنسهم وقومهم وعددهم ، من مجرد ملاحظة مظهرهم وهياكلهم ، ومن المعروف أن علم الفراسة عند القبائل العربية طرف من هذه القدرة الهائلة على الحدس الحسى والنفسى . أما الشم عند هذه الأقوام البدائية ، فقد ينافس حاسة الشم لدى كلابهم .

ومثل هذا يصدق على الذاكرة ، فراعى القطيع ، وهو يرى قطعانه الكثيرة تمر أمام ناظره ، كثيراً ما يستطيع له نقصها أو تمامها بلمحة عين ، بل كثيراً ما يصف الرؤوس الناقصة . (٣٥)

وكانت هناك أيضاً التربية الجسمية حيث كانت أهم مشاكل الإنسان البدائي هى أن يحمى نفسه وأسرته من الأعداء سواء كانوا من البشر ، أو من الحيوانات ، فكان عليه أن يعنى بجسمه وبنياته وقد مارس من أجل ذلك تدريبات بدنية مختلفة ، وكان من عاداتهم تشجيع الأطفال لكم آباءهم كى لا يشبوا جبناً ، وعندما يكبر

الأطفال عليهم أن يتقبلوا بكل شجاعة اللكمات القوية التي يسدها إليهم الآباء (٣٦)

أما عن التربية الدينية ، فكانت فى بداية الأمر فى يد الأسرة ، ولكن عندما انضمت الأسرة لتكون قبائل ، وأصبحت عادات القبيلة جزءاً من ميراثها الاجتماعى ، صارت الضرورة إلى العبادة الجماعية بين أفراد القبيلة ، ولهذا كان لابد من وجود قائد للقبيلة ، ولقد اختير لقوته أو سته ، أو منظره أو قدرته ، ومن المحتمل أنه كان يسمى رجل الطب أو الطبيب ، أو الساحر أو الكاهن . وكان من أهم اختصاصاته طرد الأرواح الشريرة ، وابتكار الرقصات وإعداد المراسم والطقوس والطلاسم ، وكل ما يرتبط بالعبادة .

كان القائد أو مختار القبيلة ، زعيمها الدينى ، وكان عليه أن يعرف الأسباب التى من أجلها تقام الطقوس والمراسيم ، وشكلت هذه المعرفة المنابع الأولى للمعرفة التى ستتنضم وتنوع فيما بعد لتكون المناهج التى يدرسها التلاميذ والطلبة . ولكى تنقل هذه المعرفة من جيل لآخر ، نظمت فصول لتدريب الشباب من القبيلة الذين اختيروا لتولى الوظائف الكهنوتية فيما بعد . وكان لابد اذن لهذه الطائفة من رجال الدين أن تحجب الأسرار الدينية عن سواد الجماهير . وعندما ظهرت الكتابة ، ظلت هذه المعرفة أيضاً قاصرة على رجال الدين الذين زادوا عليها جيلاً بعد جيل ، فكان الكهنة هم المعلمين وحاملى المعرفة وتنظيمها وهم الذين ابتكروا اللغة والآداب . (٣٧)

وليس فى وسعنا أن نقدر ما أداه الإنسان فيما قبل التاريخ تقديراً تاماً ، لأننا من جهة لا ينبغي أن ننساق وراء الخيال فى تصوير

حياتهم بحيث تجاوز ما تبرره الشواهد ، ولكننا قد نشك من جهة أخرى أن الدهر قد محا آثاراً لو بقيت لضيقّت مسافة الخلف بين الإنسان الأول والإنسان الحديث (٣٨) ومع ذلك فما قد بقي لنا من أدلة خطوات التقدم التي خطاها إنسان العصور الحجرية ، يكفي وحده لتقديره : فحسبنا ما تم في العصر الحجري القديم من صناعة الآلات واكتشاف النار وتقديم الفنون ، وحسبنا ما ظهر في العصر الحجري الحديث من زراعة وتربية حيوان ونسج وخزف وبناء ونقل وطب وسيادة الإنسان على الأرض سيادة لم يعد منازعاً فيها ، والتوسع في عمرانها ببناء الجنس البشري . وهكذا وضعت للمدينة كل أساسها : كل شيء قد تم إعداداه للمدنيات التاريخية ، إلا المعادن (فيما نظن) والكتاب والدولة ، فهياً للإنسان سبلاً لتسجيل أفكاره وأعماله ، بحيث يمكن نقلها كاملة آمنة من جيل إلى جيل ، تبدأ له المدنية.

ويمكن القول بلا مبالغة أن أوسع خطوة خطاها الإنسان في انتقاله إلى المدنية هي الكتابة ، ففي قطع من الخزف ، هبطت إلينا من العصر الحجري الثاني ، خطوط مرسومة بالألوان فسرها كثير من الباحثين على أنها رموز وقد يكون هذا موضعاً للشك ، لكنه من الجائز أن تكون الكتابة بمعناها الواسع الذي يدل على رموز من رسوم تعبر عن أفكار ، وقد بدأت بعلامات مطبوعة بالأظفار أو بالمسامير على الطين وهو لين ، بغية زخرفته أو تمييزه بعد أن تتم صناعته خزفاً. (٣٩)

ويرى « فلندرز بترلي (Flinders petrie) أن مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئاً فشيئاً في العصور الأولى لأغراض شتى ،

فقد تبودلت مع التجارة ، وانتشرت من قطر إلى قطر .^(٤١)
ومهما يكن من أمر تطور هذه الرموز التجارية الأولى ، فلقد
سايرها جنباً إلى جنب ضرب من الكتابة كان فرعاً من الرسم
والتصوير ، وكان يعبر بالصور عن فكر متصل . وما جاء عام ٣٦٠٠
ق.م - وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمان طويل - حتى كانت
(عيلام) و (سومر) و (مصر) قد طورت مجموعة من الصور التي
يعبرون بها عن أفكارهم وأطلقوا عليها اسم (الكتابة الهيروغليفية) ،
لأن معظم من قام بها كان من الكهنة.

وسرى فيما بعد كيف استحوطت هذه الكتابة الهيروغليفية التي
تمثل كل صورة منها فكرة كيف استحوطت بخط الاستعمال ، ثم
بما تناولها من تنسيق وتنظيم عرقي ، إلى مقاطع ، أى إلى مجموعة
من الرموز يدل كل منها على مقطع ، ثم كيف استخدمت
العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله ، بل على أول ما فيه
من أصوات ، وبهذا أصبحت حروفاً ، وربما كان تاريخ هذه الكتابة
الهيروغليفية يرقى في التاريخ إلى عام ٣٠٠٠ ق.م في مصر .^(٤٢)

الظاهر إذن أن الكتابة من نتائج التجارة ، وهى إحدى وسائل
التجارة المسهلة لأموها ، فها هنا أيضاً نرى الثقافة كم هى مدينة
للتجارة ، ذلك أنه لما اصطنع الكهنة لأنفسهم مجموعة من رسوم
يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبية ، اتحدت الطائفتان :
الديوية والدينية ، وهما طائفتان متنازعتان عادة ، اتحدتا مؤقتاً لتعاوننا
على إخراج أعظم ما أخرجته الإنسانية من مخترعاتها منذ عرف
الإنسان الكلام ، نستطيع أن نقول أن تطور الكتابة هو الذى كان
ينشئ الحضارة انشاءً ، لأن الكتابة هيات وسيلة تسجيل المعرفة

ونقلتها كما كانت وسيلة لازدهار العلم وازدهار الأدب ، وانتشار السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة على تناورها ، لأن استخدام لغة واحدة أخضعتها جميعا للدولة واحدة . إن بداية ظهور الكتابة ، هي الحد الذى يعين بداية التاريخ ، تلك البداية التى يتراجع عنها كلما اتسعت معارف الإنسان بآثار الأولين .^(٤٢)

هوامش الفصل الأول

- ١- أشلى مانتاغيو (محرر) : البدائية ترجمة د. محمد عصفور ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة (٥٣) مايو ١٩٨٢ ، ص ٢٢ .
- ٢- المرجع السابق . ص ٢٣
- ٣- وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، القاهرة دار المعارف ، ١٩٦١ ، ص ٤٦ .
- ٤- Butts , R.Freeman , A Cultural History of Western Educa (tion , New York , Megraw . Hil Book Company Inc , 1955, pp4-5.
- ٥- مونتاغيو : البدائية ص ١٥ .
- ٦- المرجع السابق - ١٦ .
- ٧- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج ١ ، م ١ ، ١٩٦٥ ، ص ١٥ .
- ٨- المرجع السابق ، ص ٢٢ .
- ٩- المرجع السابق ، ص ٢٣ .
- ١٠- المرجع السابق ، ص ٣٦ .
- ١١- المرجع السابق ، ص ٥٥ .
- ١٢- بول مترو : المرجع فى تاريخ التربية ، ترجمة صالح عبد العزيز ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٩ ، ج ١ ، ص ص ٣ ، ٢ .
- ١٣- سعد مرسى أحمد : التربية والتقدم ، القاهرة ، عالم

الكتب ، ١٩٧٧ ص ١٧ .

١٤- جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة محمد خلفالله وآخرين ، القاهرة دار المعارف، ١٩٦١ ، ج ١ ، ص ٤٢ .

١٥- ج.ل. مائيز : فجر التاريخ ، ترجمة على عزت الانصارى ، القاهرة ، مركز الشرق الأوسط ، ١٩٦٢ ، ص ٢٤ .

١٦- سارتون : تاريخ العلم ، ص ٥١ .

١٧- ديورانت ، قصة الحضارة ، ج ١ ، م ١ ، ص ١٣٧ .

١٨- المرجع السابق ، ١٣٦ .

١٩- المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

٢٠- ليفى بريل : العقلية البدائية ، ترجمة د. محمد القصاص

، مكتبة مصر ، دت ، ص ٢١ .

٢١- المرجع السابق . ص ٢٤ .

٢٢- المرجع السابق ، ص ٤٨ .

٢٣- المرجع السابق ، ص ٤٩ .

٢٤- المرجع السابق ، ص ٥١ .

٢٥- المرجع السابق ، ص ٥٣ .

٢٦- المرجع السابق ، ص ٥٤ .

٢٧- المرجع السابق ، ص ٩٠ .

٢٨- مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، ج ١ ، ص ٤ .

٢٩- المرجع السابق ، ص ٥ .

٣٠- محمد منير مرسى : تاريخ التربية فى الشرق والغرب ،

القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٧ ، ص ١٩ .

٣١- المرجع السابق ، ص ٢٠ .

- ٣٢- وهيب سمعان: الثقافة والتربية في المجتمعات القديمة ، ص ٥٧ .
- ٣٣- المرجع السابق ، ص ٥٨ .
- ٣٤- ديورانت ، قصة الحضارة ، ط١ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .
- ٣٥- عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٨ ، ص ٢١ .
- ٣٦- سعد مرسى : التربية والتقدم ، ص ١٨ .
- ٣٧- المرجع السابق ، ص ١٩ .
- ٣٨- ديورانت ، قصة الحضارة ، م ١ ، ج ١ ، ص ١٧٦ .
- ٣٩- المرجع السابق ، ص ١٨١ .
- ٤٠- المرجع السابق ، ص ١٨٢ .
- ٤١- المرجع السابق ، ص ١٨٣ .
- ٤٢- المرجع السابق ، ص ١٨٤ .



الفصل الثاني

التربية في العراق القديم

تاريخ بلاد النهرين القديم هو أقرب ما يقرب بتاريخ مصر القديم ، من حيث السبق الزمني والثراء المتنوع والطابع المتميز واتصال التطور في مجالات الفكر والمادة معا . وكان فيما بقى من آثار العراق ، وما أتت به قصص التوراة عن الآشوريين والبابليين وعلاقتهم بمناطق فلسطين والعبرانيين ، ثم ما سجله الرحالة والمؤرخون الأغريق والرومان الكلاسيكيون عنهم وعنهما ما أثار تطلع عدد من الرحالة والباحثين ، بل والمغامرين في بداية العصر الحديث إلى محاولة كشف النقاب عن آثار بلاد العراق وتاريخها القديم.^(١)

وكانت بلاد ما بين النهرين مهد حضارات قديمة ، وكان إنسانها الأول متفرقا في مجموعات بشرية انتشرت بين الشمال والجنوب ، وقد استطاع هذا الإنسان أن يحيا حياة قامت على أسس حضرية متقدمة منذ أول عصور فجر التاريخ وهذه الأسس أخذت تتطور تطوراً رتيباً في سلسلة متعددة الحلقات . ويجب علينا ألا نعتقد بأن هذا التطور كان يحدث على مسرح واحد ، بل تعددت مسارحه واختلفت أسبابه ، ولكن من الصعب علينا أن نحدد ونتبع التطور الحضري بشكل تفصيلي بالنسبة إلى مجموعة بعينها من البشر طوال عصور متتابعة من التاريخ سكنت مكاناً واحداً ، وذلك لسبب بسيط وهو أن الخلفات البشرية التي تركوها لنا في أمكنة معيشتهم غالباً ما اندثرت واختفت على مر السنين ولأنهم أيضاً لم يكونوا قد وصلوا في مدينتهم إلى الحد الذي استطاعوا معه استعمال

أدوات فى حياتهم اليومية تغالب الدهر أو أنهم استعملوا الكتابة على نطاق واسع^(٢).

وإذا نظرنا إلى الخريطة السياسية لجنوب غرب آسيا حوالى سنة ٢٠٠٠ - ١٩٠٠ ق.م نجد فى هذه المنطقة دولة عالمية ، هى امبراطورية سومر وأكاد التى أنشأها عام ٢٢٩٨ ق.م ، الملك السومرى (اورانجور) من (أور) وأحياءها حوالى عام ١٩٤٧ ق.م الملك حمورابى من (عيلام).^(٣)

وكان البناء الأساسيون للحضارة والتاريخ فى أرض الرافدين شعبين ينتميان إلى أصلين مختلفين كل الاختلاف ، أبدا ما تضمه تلك المنطقة من آثار فنية وأدبية كبيرة ، ونعنى بهما السومريين والأكديين . وقد عاش هذان الشعبان مختلطين بعضهما ببعض إلى حد كبير ، فكانت حضارة أرض الرافدين وتاريخها نتاج شعب مركب يستحيل فى كثير من الأحيان التمييز فى وضوح بين العنصرين اللذين يتألف منها^(٤).

والأكديون فى اصطلاح العلماء اسم جامع للبابليين والأشوريين.

ويؤكد أحد الباحثين العراقيين على أن أقدم الحضارات الرئيسية التى شهدتها العراق فى جنوب الرافدين فى المرحلة الثالثة من مراحل تاريخ العراق قبل الميلاد ، وهى تتألف من أربعة فصول حضارية فرعية يتشابه قسم منها مع بعضها كما يختلف القسم الآخر عن بعض اختلافًا كليًا أطلق عليها بعض العلماء (عصور فجر التاريخ) أى ما يتوافق مع آخر عصور ما قبل التاريخ ، وتمتد هذه الحقبة الحضارية ما بين ٦٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق.م . وهذه تعد من ضمن العصر الحجري

المعدنى الذى حدد ما بين سنة ٥٦٠٠ و ٣٥٠٠ ق. م بصورة تقريبية . أما الفصول الحضارية فيمكن توزيعها كما يأتى :

- ١- حضارة العبيد واريلى من ٥٠٠٠ - ٣٨٠٠ ق. م .
- ٢- حضارة الوركاء من ٣٨٠٠ - ٣٢٠٠ ق. م
- ٣- حضارة جملة نصر من ٣٢٠٠ - ٣٠٠٠ ق. م
- ٤- حضارة عصر مسيلم السامى من ٣٠٠٠ إلى نهاية عصور ما قبل التاريخ.^(٥)

وقد دارت ولا تزال قدور حول هذه الحقبة الحضارية آراء مختلفة ونقاشات متضاربة بحيث أصبحت تؤلف مشكلة عويصة أشبه بعملية رياضية يصعب حلها ، وهى لا تزال من القضايا المستعصية التى لم تستطع حلها الدراسات اللغوية والأثرية ، وكان سبب حدوث هذه المشكلة أن أكثر الباحثين الأجانب كانوا ، ولا يزالون ينفردون بالبحث عن تاريخ العراق القديم وهم الذين ابتدعوا نظرية تاريخية لا تستند إلى واقع تاريخى فضلا عن أنها تجانب المنطق والعقل السليم . وهذه النظرية تجعل الحضارات التى ازدهرت فى جنوب العراق ماقبل التاريخ تعود كلها إلى السومريين (شعب غير سامى) فى حين أنهم يعلمون حق العلم بأن هذه الحضارات لا يمكن إلا أن تكون سامية الأصل ، وهى حضارة العراق الأسامية عندما أسسوا مستوطناتهم الزراعية فى جنوب العراق ، أما السومريون فقد ظهوروا فى ما بعد التاريخ أى أنهم ظهوروا فى عصر فجر السلالات ما بعد زمن الحضارات المذكورة بعشرات القرون.^(٦)

ويشير الباحث العراقى إلى أن الغربيين قصدوا أبعاد السامية العربية عن دورها فى تأسيس حضارة وادى الرافدين بدليل أن الآثارى

(سيتون لويدي) الذي كان يعمل خبيراً في دائرة الآثار العراقية عدة سنوات كتب مقالاً عن «أريدو» نشر في مجلة سومر سنة ١٩٤٧ يستغرب من جرأة (كرامر) الخبير الآثارى في موضوع (السومريات) أن يشير في كتابه (الأساطير السومرية) الصادر سنة ١٩٤٤ إلى وجود الساميين عندما نزع السومريون إلى العراق والغريب أن تختفى هذه الإشارة في الطبعات التالية !! (٧)

الحضارة السومرية :

قبل قيام السومريين ، وجدت في المنطقة بين غرب إيران وجنوب العراق مدينة (السوس) القديمة - كانت فيما مضى مركز إقليم يسميه اليهود بلاد عيلام - أى الأرض العالية ، فى هذا المكان أنشأ شعب لا نعرف أصله ولا الجنس الذى ينتمى إليه ، إحدى المدنات الأولى المعروفة فى تاريخ العالم. وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون فى هذا الإقليم منذ جيل مضى ، آثاراً بشرية يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام ، كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق . م ، وإن كان هناك من المؤرخين (مثل برستد) يعتقد أن هناك مبالغة فى قدم هذه الثقافة. (٨)

أما السومريون الذين ظهروا بعد ذلك فى جنوب العراق ، فقد كانوا جماعات لا تعرف عنهم سوى أنهم ربما وفدوا من الشرق (٩) ، وقد عاشت هذه الجماعات فى مرحلة العصر الحجري الحديث ، وهؤلاء المزارعون الأوائل هم ممن وضعوا بذور المدنية فى العراق ، إذ أن عديداً من المراكز المدنية الكبرى التى تظهر هناك فى أثناء الفترة التاريخية ترجع بأصولها إلى هؤلاء المستقرين الأوائل .

وقد بلغ السومريون مرتبة عالية من الحضارة ، فقد بدءوا شق القنوات واستغلال التربة بمقل وتدبير ، وإقامة المعابد والتماثيل .
وقد تركت الحضارة السومرية طابعها المباشر أيضاً فى آشور وسوريا ومصر ، ولكن لم يقابل هذا اتساع فى النفوذ السياسى ، فالواقع أن السومريين كانوا عاجزين دائماً من الناحية السياسية عن بناء دولة كبيرة (١٠)

وقد عثر المتقبن فى بلاد سومر على أنواع شتى من الأحجار والمعادن ولم تكن البلاد نفسها تحويها ، فمن المعروف أن أهل هذه الحضارة سكنوا دلتا الدجلة والفرات التى تكونت من ترسيبات الغرين على مر السنين ، ولم توفر كيفة لسكانها غير البوص وأشجار النخيل والطمى . فإذا استعمل السومريون أنواعاً شتى من الأحجار مثل الحجر الجيرى والألبستر والمرمر والديوريت والعقيق ، ثم إذا حذقوا صناعة صهر الذهب والفضة والنحاس ، فمعنى هذا إن كل هذه الأحجار والمعادن ، كانوا يستوردونها من خارج البلاد ، وطبعاً دل هذا أيضاً على وجود علاقات تجارية واسعة النطاق ، امتدت حتى وصلت إلى بلاد الهند شرقاً ، وآسيا الصغرى شمالاً ، وسوريا غرباً ، ثم مصر جنوباً (١١) .

وفيما يتعلق بالكتابة مازلنا لانعرف على وجه اليقين هل أن السومريين بالذات هم الذين قاموا أولاً باستخدام الكتابة للتعبير عن الفكر ، مع أن هذه الفرضية تعتبر الأكثر شيوعاً . أن أقدم الشواهد على الكتابة السومرية هى تلك الرقم الطينية الصغيرة التى نقشت عليها الكتابة التصويرية والتى تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد . وربما يكون السومريون قد بدأوا الكتابة قبل هذا التاريخ على

مواد أخرى ذات تركيبة عضوية ، وأن تكون هذه المواد قد تخللت وتلاشت للأبد . ومن المحتمل أيضاً ألا يكون السومريون هم أول من توصل إلى تطوير الكتابة كوسيلة جديدة للتواصل ، أى أن يكونوا قد أخذوا هذا عن شعب آخر غير معروف كان يعيش قبلهم فى الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين (١٢) .

وكان السومريون يحتفظون بالرقم الطينية فى أماكن خاصة داخل المعابد أو القصور الملكية أو المدارس ، وقد تم العثور على بقايا هذه المكتبات أو مراكز الوثائق فى المدن السومرية الكبيرة كلاكاش وأرورك ونيبور الخ . وفى الواقع أننا لا نعرف الكثير عن مظهر هذه المكتبات أو مراكز الوثائق ، ولا نعرف شيئاً عن تنظيمها وعملها ، ومع ذلك فإن الخبير الأمريكى بتاريخ وثقافة السومريين س . ن . كرامر قد سلط أخيراً ضوءاً ساطعاً على هذه القضية المثيرة . فقد كشف عن أن أحد النصوص المدونة على رقم طينى محفوظ فى المتحف الجامعى فى فيلادلفيا ، ولاية بنسلفانيا - الولايات المتحدة ، ماهو إلا فهرس لإحدى المكتبات وفى الواقع أن هذا الرقم الطينى يعود إلى حوالى ٢٠٠٠ ق.م ، وقد تم العثور عليه فى بقايا مدينة نيبور ، المركز الدينى والثقافى للسومريين حيث اكتشفت أيضاً الكثير من الرقم الطينية بالإضافة إلى ورشة للكتابة فى حالة جيدة ومدرسة أيضاً . وعلى الوجه الأمامى والخلفى لهذا الرقم الطينى نجد سجلاً لاثنتين وستين كتاباً فى موضوعات مختلفة ، حتى أن الكتب الـ ١٣ الأخيرة تنتمى إلى مجموعة (الحكمة) (١٣)

ويرى أحد الباحثين العراقيين أن الخط المسمارى الذى نسب اختراعه إلى السومريين كان قد ظهر فى الألف الرابعة قبل الميلاد

لأول مرة (قبل أن يكون السومريون قد وجدوا بعد) ، على هيئة ألواح صورية (أى أن كل علامة مسمارية كانت تمثل صورة الشيء المراد كتابته) أو الكلمة المطلوبة التعبير عنها. والثابت لدى العلماء أن أول وأقدم كتابة صورية معروفة وصلت إلى الآن ، وصلت إلينا من كيش السامية وليس من سومر ، ولم تكن هذه الكتابة على الطين كما كانت عليه الرقم السومرية التي اكتشفت في الوركاء فيما بعد ، بل كانت منقوشة على الحجر ويرقى تاريخها إلى حوالي عام ٤٠٠٠ ق. م. (١٤)

وعلى هذا فإن الساميين هم الذين اكتشفوا الخط المسماري واستعملوه بنطاق واسع في كل البلاد التي سيطروا عليها خاصة وقد ثبت لدى الباحث أن الساميين تواجدوا في المنطقة قبل السومريين ، ولو كان الخط المسماري من نتاج السومريين وحدهم لكان الساميون قد أخذوا معه اللغة السومرية التي كانت تستعمل مع الأكديّة السامية في كيش ، بل إن السومريين هم الذين استعاروا كلمات أكديّة سامية وأدخلوها في لغتهم السومرية ، وهذا ما يدل على أن الساميين سبقوا السومريين في الاستيطان في وادي الرافدين ، فاقبّس السومريون كلمات سامية استعاروها من الأكديّة السامية. (١٥)

ويضيف (سوسة) إلى أن الرأي الذي أبداه بعض الباحثين من أن أصحاب حضارة العبيد هم الذين اكتشفوا الخط المسماري ينسجم مع الواقع التاريخي ومع المنطق ويدوره يؤيده ، ولما كانت الدلائل تؤيد بأن حضارة العبيد سامية بدليل وجودها في البلاد السامية المجاورة وهي سوريا وجزيرة العرب والخليج العربي والعراق فلا يمكن أن تكون حضارة العبيد العراقية إلا من الساميين أيضاً بطبيعة الحال.

وبذا يكون الساميون هم الذين اكتشفوا الخط المسمارى . ويجب ألا ننسى أن الساميين الكنعانيين هم الذين اكتشفوا فيما بعد الأبجدية فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد . (١٦)

كذلك فلقد ثبت مؤخراً بعد اكتشاف لغة (بيلا) السامية فى (تل مردوخ) بسورية التى تعود إلى سنة ٣٠٠٠ ق . م أنهم قد استعملوا الخط المسمارى بلغتهم الأيلوية ، مما يدل على أن الساميين سبقوا السومريين فى اكتشاف الخط المسمارى واستعملوه فى كتابة لهجتهم الكنعانية القديمة قبل السومريين .

وأخيراً ، فقد كان العيلاميون يستعملون الخط المسمارى مثل السومريين ، ولا نعلم من استعمل الكتابة السومرية قبل الآخر . على أية حال فالكتابة هى أهم ما قام به العقل (السومرى) ولقد اصططحنا على تسميتها بالكتابة (الاسفينية) وذلك لأن الكاتب كان يرسم علاماته فوق سطح لوحات طينية لاتزال طرية مستعملا قلماً يشبه (الاسفين) مثلثاً ومنشورى الشكل ، يمسك به مائلاً وهو يضبط على سطح اللوحة بخفة ، وكان الركن يترك خطأ رقيقاً بينما تترك القاعدة علامة أكثر عمقاً واتساعاً وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار، وكانت تتكون فى أول الأمر من صور تعبر كل منها عما ترمز إليه ، ثم بعد ذلك تطورت نحو السهولة فى الاستعمال باختصار الخطوط التى تتكون منها الصورة (١٧) .

والخطوة التالية لذلك كانت استعمال العلامة ليس للتدليل عما تمثله بل كحروف نطق ومثل ذلك « السهم » استعمل أولاً للتدليل على أداة القتال ، ثم استعمل نطقها « تى » للتدليل على (الحياة) وهى كلمة تنطق فى لغتهم « تى » أيضاً، وللتفرقة بين المعنيين أردفوا

علامة السهم «تى» بمخصص هو قطعة من الخشب للتدليل على أن الكاتب يقصد (السهم) المصنوع من الخشب وليس (الحياة) ، وتمتاز الكتابة السومرية بأنها عرفت الحروف المتحركة وهذا مما يسهل على القارئ نطق الكلمات.

وليس من شك في أن الكتابة السومرية تطورت من قرن إلى قرن ، بل إنها لم تكن متشابهة تماماً في كل المدن في عصر من العصور ، إذ أن كل مدرسة احتفظت بنوع من التقاليد في تصوير
العلامات (١٨)

ومن مظاهر تطور الكتابة المسمارية ، أنها انتقلت بخصائصها من لوحات الطين الشائعة إلى لوحات الحجر والمعدن حيث توافرت (مع بقاء الغلبة للوحات الطين) ، وكانت جهود السومريين الأوائل في تطويرها بمثابة حجر الزاوية لها . وظلت تختلف عن الكتابة المصرية القديمة التي نافست شهرتها في العالم القديم ، في أربعة أمور وهي : سهولة التعبير نسبياً عن الحركات في مقاطعها ، وتخليها في أغلب الأحوال عن الصور الطبيعية الأصلية ، وكذلك في عدم تطورها إلى مرحلة الحروف الهجائية ، وعدم استفادة أصحابها من مواد الكتابة التي عرفها المصريون لاسيما صفحات البردي وأنواع المباد . ولو أن هذه الاختلافات كلها لم تحل دون استمرارها قروناً طويلة عند السومريين وعند من تلاهم من الساميين ، بل ولم تقف دون شيوعها من العراق إلى مايتصل به في غرب إيران وشمال بلاد الشام وشرق الأناضول ، وعندما قل استخدامها في أواخر التاريخ العراقي وغلبت الكتابة الأرامية عليها شيئاً فشيئاً ، انطوت في ظل النسيان ، وأصبحت مجرد رموز وطلاسم ، حتى بدأت الدراسات الحديثة

تكشف النقاب عنها مرة ثانية ، منذ أواسط القرن التاسع عشر
الميلادى . (١٩)

وسجل السومريون الأعداد الحسابية على هيئة دوائر وأنصاف دوائر
أحياناً ، وعلى هيئة خطوط مسمارية قائمة ومائلة تشبه فى جملتها
هيئة المربعات والمعينات الأخرى ، واعتبروا العدد ٦ بداية الكثرة فى
الأحاد بعد العدد ٥ الذى يمثل نهاية العد على أصابع اليد الواحدة ،
كما اعتبروا العدد ٦٠ بداية الكثرة فى العشرات ، وكانوا يرمزون إليه
بعلامة مسمارية قائمة شأنه فى ذلك شأن الواحد بداية العد . ولعل
التقسيم الستينى الحالى للساعات والدقائق ، كان متأثراً نوعاً ما فى
أصله البعيد بعلم الفلك البابلى ، المتأثر بدوره بعلم الرياضيات
السومرى .

وتوافرت للكاتب السومرى مكانته فى مجتمعه ، وكان الكتابة
لا يزالون قلة أو يبدو أنهم ظلوا ألصق بالمعابد منهم بغيرها ، وظل
الناس يحسون بأهميتهم حين يعاملونهم بأسماء الحكام ورؤساء
المعابد ، وحين يلجأون إليهم لكتابة العقود وتحرير الرسائل أو قراءتها ،
وكان كتابة المحفوظات يحفظون لوحاتهم الهامة فى جرار وسلال
يعنونونها ببطاقات صغيرة مسطحة أو بيضاوية أو مستديرة ويسجلون
عليها طبيعة محتوياتها. (٢٠)

ومن أهم ما احتفظت به الثقافة السومرية ، قصة الطوفان ، وقد
كان الناس يعتقدون حتى أخريات القرن الماضى أن التوراة هى أقدم
مصدر لقصة الطوفان ، غير أن الاكتشافات الحديثة قد أثبتت أن
ذلك مجرد وهم ، حيث عثر فى عام ١٨٥٣ على نسخة من رواية
الطوفان البابلية . وفى الفترة فيما بين عامى ١٨٨٩ ، ١٩٠٠

كشفت أول بعثة أمريكية قامت بالحفر في العراق ، عن اللوح الطيني الذى يحتوى على القصة السومرية للطوفان ، فى مدينة (نيبور) سنفر- ، وكان (أرنوبويل) أول من قام بنشرها فى عام ١٩١٤ ، ثم تبعه آخرون ، وإن كانت ترجمة (بويل) هى الأساس الذى مايزال يعتمد عليه الباحثون. (٢١)

هذا ويبدو من طابع الكتابة التى كتبت بها القصة السومرية أنها ترجع إلى عهد الملك البابلى الشهير (حمورابى) - ١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق. م وإن كان من المؤكد أن القصة منها إنما ترجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير ، ذلك لأنه فى هذا الوقت الذى كتب فيه اللوح لم يكن هناك وجود للسومريين ، بوصفهم عنصراً مستقلاً ، فقد كانوا قد ذابوا فى الشعب السامى ، هذا فضلاً عن أن لغتهم كانت من قبل قد أصبحت لغة ميتة ، على الرغم من أن الكهنة والكتاب الساميين كانوا مايزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة عند القوم ، والمحفوظة فى ثنائيا تلك الآداب ، ويميدون كتابتها ، ومن ثم فإن الكشف عن رواية قصة الطوفان السومرية إنما يدعو إلى افتراض أنها إنما ترجع إلى زمن سبق احتلال السومريين لوادى الفرات ، وأن هؤلاء الساميين إنما قد أخذوا هذه القصة ، فيما يبدو ، عن السومريين ، بعد هجرتهم إلى وادى الفرات.

هذا وتتضمن قصة الطوفان السومرية عدة وقائع مهمة ، يتعلق أول ما يمكن قراءته من سطورها بخلق الإنسان والنبات والحيوان وبأصل الملكية السماوى ، فضلاً عن خمس مدن ترجع إلى ما قبل الطوفان ، ومن أسف أنه من بين اللوحات التى تتناول القصة لم يبق سوى لوحة واحدة ، وحتى هذه لم يبق منها سوى ثلثها الأخير ،

وقد فقدت مقدمة النص ونهايته ، ومن ثم فهو نص غامض فى أكثر نواحيه ، ومع ذلك فإن السطور الباقية تقدم لنا الخطوط الرئيسية (٢٢) وكان أهل البلاد الأغنياء والفقراء ينقسمون إلى طبقات ومراتب كثيرة، وكانت تجارة الرقيق منتشرة بينهم وحقوق الملكية مقدسة لديهم ، ونشأت بين الأغنياء والفقراء طبقة أفرادها من صغار رجال الأعمال وطلاب العلم والأطباء والكهنة وقد علا شأن الطب عندهم ، فكان لكل داء دواء خاص ، ولكنه ظل يحتفظ بالدين ويعترف بأن المرض لا يمكن شفاؤه إلا إذ طردت الشياطين من أجسام المرضى ، لأن الأمراض إنما تنشأ من تجمّعها هذه الأجسام (٢٣) وكان لديهم تقويم ، لا نعرف متى نشأ ولا أين نشأ ، تقسم السنة بمقتضاء إلى اثني عشر شهراً قمرياً يزيدونها شهراً فى كل ثلاثة أعوام أو أربعة ، حتى يتفق تقويمهم هذا مع فصول السنة ومع منازل الشمس ، وكانت كل مدينة تسمى هذه الأشهر بأسماء خاصة. (٢٤)

و كان الكهنة يعلمون الناس العلوم ويلقنونهم الأساطير ، وما من شك فى أنهم كانوا يتخلّون من هذه الأساطير سبيلاً إلى تعليم الناس ما يريدونه هم ، وإلى حكمهم والسيطرة عليهم . وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب ، ويفرسون فى نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح ويعلمون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتابة . وقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جدول للضرائب والقسمة ، والجدول التريعية والتكعيبية ، ومسائل الهندسة التطبيقية (٢٥).

ويغلب على الظن أن الانتقال من الكتابة إلى الأدب ، تطلب عدة مئات من السنين ، فقد ظلت الكتابة قروناً عدة أداة تستخدم

فى الأعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك ، قوائم البضائع التى تنقلها السفن ، والايصالات ونحوها . ولعلها كانت ، بالإضافة إلى هذا أداة لتسجيل الشؤون الدينية ، ومحاولة للاحتفاظ بالطلاسم السحرية ، والإجراءات المنية فى الاحتفالات ، والمراسم والأقاصيص المقدسة ، والصلوات والتراويل ، حتى لا يبيد ولا يدخل عليها المسخ والتغيير . ومع هذا فلم يحل عام ٢٧٠٠ ق.م حتى كان عدد من دور الكتب قد أنشئ فى المدن السومرية (٢٦) .

وبلخص (ديورانت) الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً فى هذا للتناقض بين خزفها الفج وحليها التى أشرفت على الغاية فى الجمال والإيمان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة واتقان بارع فى بعض الأحيان . وفى تلك البلاد - على قدر ما وصل إلى علمنا فى الوقت الحاضر - نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات ، وأول نظم الرى ، وأول استخدام للذهب والفضة فى تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة فى نطاق واسع ، وأول قصص الخلق والطوفان ، وأول المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول أصباغ التجميل والحى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل وأول استعمال للمعادن فى التزيين والتزيين . وهنا نجد فى البناء أول العقود والأقواس وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة فى التاريخ المعروف بعض مساوئ الحضارة فى نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة فى تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة ، وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة

والنعيم للأقوياء ، و حياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس ،
وفى تلك البلاد كانت بداية ما نشأ فى تاريخ العالم من اختلافات
يخطئها الحصر (٢٧).

أكد:

والى الشرق من مدينة بابل القديمة ، وسط العراق ، نجد مدينة
« كيش » مقر أقدم ثقافة عرفت فى هذا الإقليم ، والى جوارها نجد
مدينة « أكد » التى تنسب إليها دولة « اللاكديين » .

وفى أوائل القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد كانت مدينة
« كيش » مسرحاً لأحداث كبيرة ، إذ هاجمها شعب سامى قوى
وصل إليها من المناطق التى تحدها شمالاً وأخذ يستقر فيها ويعمل
على توسيع رقعة سلطانه ونجح فى ذلك نجاحاً مستفيضاً على يد أحد
رجاله المدعو (سرجون) (٢٨).

ولقد وصلت إلينا من هذا العصر وثائق مختلفة، منها : ما يتعلق
بحياة الناس اليومية ، ويتحدث عن تجارتهم وحسابات الأرباح
والخسارة أو تسجيل عقود بيع وشراء العقارات ، ومنها ما كان
يتحدث عن الملوك وأعمالهم المختلفة ، إلا أن منها ما كان يحمل
طابعاً أدبياً مثل تلك الوثيقة التى كتبها أحد سكان مدينة (لجش)
يستنزل فيها اللعنات على (لوجال زاجيرى) الذى خرب مدينته (٢٩)
من هذه الوثائق المختلفة نعرف أن الأكديين اتبعوا نفس الطريقة
السومرية فى إقامة حساباتهم على أساس الوحدات العددية : خمس
وعشرة وستين . وهذه الوحدات الحسابية يعينها هى التى بقيت لدينا
حتى الآن فى حساب الساعة الزمنية التى نقسمها إلى ستين دقيقة

والدقيقة إلى ستين (٣٠).

وكانت السنة عندهم قمرية وتنقسم إلى اثني عشر شهراً قمرياً ،
ويبدأ الشهر بظهور الهلال وينتهي بظهور الهلال مرة أخرى ، ولقد
عرفوا أن الشهر القمري يجعل الفصول الأربعة تختلف في حسابها
وتوقيتها اختلافاً واضحاً ، حالهم في ذلك حالنا الآن في حساب
السنة الهجرية . ولقد دفعهم ذلك إلى إضافة شهر وأحياناً شهرين
على السنة حتى تستقيم معها الفصول ... بل هناك وثيقة أرخت في
العام الثاني والخمسين من حكم الملك (شولجي) .. - أحد ملوك
الأسرة الثالثة لأور - ذكرت أن الناس زادوا ثلاثة أشهر إلى السنة حتى
تنسجم الفصول مع مظاهر الطبيعة.

واعتماد الناس أن يؤرخوا أعوامهم بسنى أميرهم في المدينة ، إلا
أنهم اضطروا فيما بعد ، أى ابتداء من عصر حكم ملوك الأكديين ،
أن يلجأوا إلى طريقة أخرى وهى تأريخ الأعوام بالأحداث المهمة التى
تقع فيها.

وينسب إلى (لبت - عشتار) (Lipit - Ishtar) (١٩٣٤ -
١٩٢٤ ق . م) واحد من أهم التشريعات فى العراق القديم ، ويؤرخ
بالعام الحادى والعشرين حكمه (حوالى سنة ١٩٢٤ ق . م) ، وبعد
تشريع (شنونا) بنصف قرن ، وقبل تشريع (حمورابى) بقرن ونصف
تقريباً ، ولم يبق من تشريع (لبت عشتار) سوى ثمانى وثلاثين مادة
، يحتمل أنها كانت تؤلف نحو نصف مواد التشريع ، فضلاً عن
مقدمته وخاتمته (٣١)

هذا وقد كتبت تشريعات لبت عشتار باللغة السومرية (وربما
كانت هناك نسخة أخرى باللغة الأكدية) وقد حفظت لنا فى سبعة

الوإاح ، عثر على ستة منها فى نيبور ، وهى محفوظة الآن بمتحف الجامعة فى لندن ، أما السابعة ومصدرها غير معروف - فمحفوظة الآن بمتحف اللوفر فى باريس ، ومن المؤكد أن هذه النسخ الطينية (الكسر) إنما هى نسخة من القانون الأصيل ، يدل على ذلك ، كثرة الأخطاء النحوية ، وسوء ترتيب المواد ، فلقد جرت العادة أن يستنسخ الطلبة القوانين أو بعض النصوص الدينية بغية تعليمهم وتدريبهم على الكتابة والقراءة ، ومن ثم المرجح أن هذه النصوص المكتشفة إنما هى من قبيل هذه النصوص التعليمية ، أما الأصل فقد دون على سلة أو نصب مميز ، لم يعثر عليه بعد ، الأمر الذى تشير إليه الفقرة التى وردت فى مقدمة القانون ، والتى تقول - على لسان لبت - عشتار : « عندما وفرت الرفاهية لبلاد سومر وأكد ، أقمت هذه المسلة » .

هذا وقد اتخذ لبت - عشتار فى مقدمة قانونه لقب (ملك سومر وأكد) ، واعتبر نفسه ولدا للإله الأكبر (انليل) ووصف نفسه بأنه الراعى الحكيم ، ولكنه سرعان ماعقب على ذلك بقوله : أنه راع متواضع ، وأنه مزارع ، وأكد رعايته للمدن العتيقة نيبور وأريدو وأور وأوروك ، وافتخر بأن ربه وهبه إمارة البلاد ، ليحق الحق فيها ، وليعمل على إسعاد السومريين والآكديين ، سواء بسواء ، وليقاوم الفساد والقتال بقوة السلاح ، ثم أكد أنه استوحى تشريعه من (أوتو) - رب الشمس - و(انليل) وأقر كلماتها المقدسة ، وأنه ابتغى أن يحرر أبناء سومر وأكد وبناتها من الرق الذى فرض عليهم .

وأما مواد القانون التى سلمت من التلف ، فإنها تعالج شؤون الأراضى الزراعية وشؤون السرقة فضلا عن شؤون العبيد فى حالات هربهم ، أو إيواء الهاربين منهم أو عتقهم كما تناولت مواد أخرى

حالات الاعتداء على الآخرين ، وتنظيم شئون الضرائب . وقد
اهتمت كثيراً بقانون الأحوال الشخصية وخاصة فيما يتعلق بشئون
الأبناء (٣٢)

البابليون

حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م أثبت شعب سامى جديد وجوده فى
فلسطين وسوريا ، وفى أرض الرافدين فى الوقت نفسه ، ونعنى بهذا
الشعب (الأموريين) الذين أسسوا سلسلة من الدول ، وفى آخر الأمر
ظفرت إحدى هذه الدول الأمورية بالصدارة ، وهى التى تسمى
الدولة البابلية الأولى (حوالى ١٨٣٠ - ١٥٣٠ ق.م) (٣٣).

وتعتبر بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج
الأكديين والسومريين ، فقد نشأ الجنس البابلى من تزواج هاتين
السلالتين ، وكانت الغلبة فى السلالة الجديدة للأصل السامى
الأكدى (٣٤).

وكان أبرز ملوك الدولة البابلية (حمورابى) الذى عاش فى القرن
الثامن عشر قبل الميلاد . وقد لاحظنا أن النظام السياسى السائد فى
بلاد ما بين النهرين قبل عهد حمورابى يقوم على وجود عدد من
الدويلات على رأس كل منها أمير ، ومنذ تولى حمورابى السلطة
أخضعها جميعاً لنفوذه ووحدها تحت سلطانه ، وأحل حكماً للأقاليم
محل الأمراء القدامى ، وكان من نتائج تركيز السلطة بين يديه أن
توحد القانون فى البلاد التى يحكمها كما توحدت الديانة ، إذ
ظهرت ديانة للدولة هى عبادة الآلة (مزدك) إله بابل ، وبذلك
اختفت آلهة الدويلات القديمة ، وقد دلت الآثار التى خلفتها المدنية

البابلية على أن تلك البلاد وصلت - فى عهد حمورابى - إلى درجة كبيرة من التقدم والحضارة (٣٥)

وكان الغرض الرئيسى من صدور ذلك القانون هو توحيد قوانين البلاد التى كان يحكمها الملك حمورابى، ونتيجة لذلك لم يقتصر قانون حمورابى على تجميع التقاليد العرفية التى كانت سائدة قبله ، بل قام بدور المصلح بجانب دوره كمشرع، وكذلك جمع فى قانونه بعض التقاليد العرفية التى رأى ضرورة تطبيقها على كل البلاد وما استتبعه ذلك التوحيد من تطور اجتماعى واقتصادى ، وجمع من جهة ثالثة بعض التقاليد العرفية التى كانت محل شك أو غموض أو اختلاف بين السكان.

وإذا طرحنا جانباً الأحكام الجنائية التى تتميز بطابع القسوة فى بعض الأحيان ، فإن بقية أحكامه تفوق نظيرتها فى قانون الألواح الرومانى رغم أنه يسبقه بما يزيد عن اثنى عشر قرناً ، فهو يعترف بالملكية الفردية ، حرية التعاقد ، ويعترف للمرأة بأهمية قانونية فى معظم الحالات .. وهو يحوى كثيراً من الأحكام التى تفوق فى عدالتها أحكام قانون الألواح ، ويؤكد صوفى أبو طالب أن روح العدالة كانت هى الطابع المميز لهذا القانون ، فهو يحمى الضعيف من القوى ، من ذلك ، الحكم الذى يقضى على رب العمل بمنح العامل أجازة ثلاثة أيام إذا كان عاملاً بالشهر ، ويمنحه عشرة أيام إذا كان عاملاً بالسنة (٣٦) .

يبد أن مثل هذا النص إذا كان يعتبر عدلاً حقاً ، فإن هناك نصوصاً أخرى تفتقد الكثير من العدل ، وإن كان هذا القول لا نسوقه على سبيل « الإدانة » لهؤلاء الناس ، فهذا كان « اتجاه الريح

« للفكر القائم عموماً في مجتمعات هذا العهد .
ومن الأمثلة التي يمكن أن تذكر عن افتقاد العدل أن الإساءة
إلى العامة كانت عقوبتها أقل قسوة إلى حد كبير من عقوبة الإساءة
إلى الاشراف أو يعاقب عليها تبعاً لمبدأ مختلف (٣٧) .
« إذا أفسد الشريف عين شريف آخر ، فليفسدوا عينه .
وإذا كسر عظم شريف آخر فليكسروا عظمه .
وإذا أفسد عين رجل من العامة أو كسر عظمه ، فليدفع «منا»
من الفضة .

وكان ينظر إلى العبد بالطبع نظرة أدنى من النظرة إلى الأحرار .
« إذا أعطى شريف المهر من أجل ابنة شريف آخر ، ولكن
أخذها آخر عنوة دون استئذان أبيها وأمها وفض بكارتها ، كان ذلك
جريمة يعاقب عليها بالموت ووجب موته .
« إذا فض شريف بكاره أمة لشريف آخر ، فليدفع ثلثي «منا»
من الفضة ، ولتبقى الأمة ملكاً لسيدها »

وكان العبيد يعدون مجرد عقار منقول يملكه سادتهم ، والنفع
الوحيد الذي كان ينطوى عليه مركزهم هو الحماية التي كان
يكفلها لهم سادتهم لهذا السبب نفسه .

وفصلت التشريعات صلات الأولاد بأبويهم وحقوقهم في
الموارث ، فجعلت من حق كل ولد على أبيه أن يعينه بمهر يتزوج
به ، فإن مات الوالد دون أن يتزوج أحد أبنائه ، أفرد له إخوانه قيمة
مهر تناسب ثروة أبيه قبل أن يقتسموا ميراثه . وكفلت نفس الأمر
بالنسبة للابنة ومخصصاتها ، بحيث إذا مات أب دون أن يزوج ابنته
ودون أن يفرد لها مخصصات مسجلة أفرد لها إخوانها مخصصاتها

المناسبة من ميراثه وقيلت حق الوالد فى حرمان ولده بحكم القضاة فى مدى عصيانه ، فإن أنكره أنكره ، فإن لم يرتدع وعاود الإساءة إلى أبيه وافسقوا على حرمانه ، وإن تبينوا براءته حموه من أبيه . وجعلت للأبناء الذكور حصصاً متساوية فى ميراث أبيهم ومخصصات أسهمهم ، إلا إذا أوصى الأب لولده البكر بوصية . وجعلت للإبنة كاهنة كانت أم مدنية حتى استغلال ما يعادل ثلث نصيب أخيها ، على أن تبقى الرقبة لاختوتها ولا يحق لها أن تتصرف فيها . وجعلت للأب أن يكتب لابنته فى حياته حتى اختيار من يتولى مسؤولية إدارة لإرثها منه ، فإن لم يفعل قام اختوتها بإدارته والانفاق عليها من ريعه فإن قصروا فى ذلك جاز لها أن توجره لمن تشاء ، ولكن دون أن يكون لها حق بيعه أو استخدامه فى سداد دين شخص ما ، وعلى أن تزول الرقبة فى أملاكها بعد وفاتها إلى اختوتها ، واستثيت من عملت بالكهانة العليا فى معبد مردوك رب بابل فسمح لها بأن تستغل حصتها كما تشاء ، وتهبها لمن تشاء بشرط ألا ترث حقوقاً اقطاعية ، حتى لا تنتقل إلى أسرة غير أسرتها (٣٨) .

وألحقت التشريعات الأبناء بخير الأبوين فنصت على أنه إذا تزوج عبد بحرة احتفظ أولادها بحرمتهم ، فإذا مات زوجها استردت مخصصاتها ، وإذا كانت ذات ولد ، قاسمت مولى زوجها المقتنيات التى شاركت زوجها فيما بعد زواجها به ، واحتفظت بنصفها من أجل أولادها ، ، وسمحت التشريعات للأب بحق الاعتراف بأولاده من جاريته ، فإذا اعترف بهم شاركوا أولاده الشرعيين ميراثه بشرط أن يتروكو لولده الشرعى البكر حتى اختيار نصيبه بنفسه ، وإن لم يعترف صراحة ببنوتهم حرموا من ميراثه ، مع حرمان إخوتهم الشرعيين من

استرقاقهم.

ونظمت التشريعات أمور التبنى ، فسمحت للرجل بأن يتخذ ريبه ولدا له ويورثه ، فإن فعل واعترف به ولداً ، ثم تنكر له ريبه وكان لقيطاً وأبى أبوته وتطلع إلى اللحاق بأبويه بعد أن عرفهما ، قطع لسانه الذى نطق بالمنكر فى حق من رياه ، أو سحلت إحدى عينيه أو قطعت أذنه . وحرمت انسحاب الريب إذا تبناه صانع ورياه وعلمه صنعه (٢٩) ، ولكنها من ناحية أخرى أجازت رجوع الريب إلى أبويه إذا عرفهما ولم يكن متبنيه قد اعترف به ولداً له . كما أجازت رجوع الريب إلى أبويه إذا لم يعلمه متبنيه الصانع حرفته ، واشترطت على من يتبنى طفلاً ، ثم يستغنى عنه بعد أن يتنجب أولاداً من صلبه ، ألا يرده إلى أهله صفر اليدين ، وأن يهبه ما يساوى ثلث نصيب ولده من صلبه من ثروته المتقولة .

هذا وإن الآداب الباقية لنا من عهد البابليين لتكثر فيها الترانيم الموجهة إلى الآلهة التى تفيض بالتلذذ الحار الذى يحاول السامى أن يسيطر به على كبرياته ويخفيه عن الأنظار ، وأكثر هذه الترانيم فى صورة (أناشيد قومية) وهى تهيتنا لتلك المشاعر العاطفية والصور الرائعة التى نراها فى (مزامير) داود ، ومن يدرى ، لعل هذه كانت مثلاً احتلته تلك المزامير المتعددة النغمات (٤٠).

متى يا إلهى

متى يا إلهى يتجه وجهك إلى

متى ، يا إلهى ، يا من أعرفه ، ولا أعرفه ، يهدأ غضب قلبك ؟

لقد فسد الإنسان وساء حكمه ،

ومن من الأحياء كلهم يعرف شيئاً؟
إنهم لا يعرفون أخيراً يفعلون أم شراً ،
أي إلهى ، لا تنبذ خادمك
لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده
والذنب الذى أذنبت ، بذله رحمة
واخلع عن ذنوبى الكثير كما يخلع المرء الثياب .

وكانت فكرة الخطيئة عند البابليين مما جعل هذه التصرفات
تصدر عن إخلاص شديد ، ذلك أن الخطيئة لم تكن مجرد حالة
معنوية من حالات النفس ، بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة
شيطان على الجسم فى مقدوره أن يهلكه .
وكانت الصلاة عندهم بمثابة رقية تخرج العفريت الذى أقبل
عليه من طوائف القوى السحرية (٤١) .

وكانت أكثر الكتابات البابلية التى وجدت فى مكتبة آشور
بانيبال هى الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء
أذاها ، والتنبيؤ بالغيب . ومن الألواح التى وجدت كتب التنجيم ،
ومنها ماهو قوائم فى الفأل السماوى منه والأرضي ، وإلى جانبها
إرشادات شديدة تهذى إلى قراءتها ، ومنها بحوث فى تفسير الأحلام
، لانتقل براعة وبعدا عن المعقول عن بعض بحوث علم النفس
الحديث ، ومنها إرشادات فى التنبيؤ بالغيب ، يبحث أحشاء الحيوانات
أو بملاحظة مكان نقطة من الزيت وشكلها ، إذا أسقطت فى أبريق
ماء (٤٢) .

وقد أدت ملاحظة الأفلاك إلى تطور عظيم فى المعلومات الخاصة

بالفلك فى أرض الرافدين ، ولاسيما خلال العصر الكلدانى ، فلدينا عدة جداول من المعلومات الفلكية تبهرن على معرفة بالظواهر السماوية واسعة الشمول وكان للبابليين منذ أقدم العصور مراصد حقيقية مقامة على رؤوس أبراج المعابد ، وكانوا يقيسون مدارات النجوم بالساعة المائية ، ويسجلون تسجيلاً صحيحاً حركات الشمس والقمر ، فصارت لهم فى القرن السابع قبل الميلاد القدرة على التنبؤ بما ينتابها من خسوف أو كسوف . وأطلقوا على مجموعات الكواكب المختلفة أسماء أخذها عنهم اليونان فيما بعد ، فالإونان يدينون لبابل بجزء كبير من معلوماتهم الفلكية ، وكان علم الفلك الأساس الذى بنى عليه التقويم ، وهو من اثنى عشر شهراً قمرياً^(٤٣). ويدل قياس الأبعاد الظاهرة بين النجوم وغير ذلك من الحسابات الفلكية ، وبعضها بالغ التعقيد ، على تقدم فى معرفة الرياضيات ، وكان أهل الرافدين يعرفون النظام الستينى والنظام العشرى ، وكانوا يستطيعون الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ومضاعفة الأس ، واستخلاص الجذور ، وحل المعادلات المركبة ، وفى الهندسة كانوا يستطيعون قياس الأحجام والمساحات .

واللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتى سومر وأكد ، وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل ، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الأيام (كما اختلفت اللغة الفرنسية عن اللاتينية) ، حتى استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد فى النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشبان على تفهم اللغة السومرية «الفصحى» والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن أجل هذا نرى نحورج الألواح التى عثر

عليها المنقبون فى المكتبة الملكية بينوى معاجم فى اللغات السومرية والبابلية والآشورية وكتبها فى نحوها وصرفها . وتقول الروايات التاريخية أن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل فى القدم هو عهد سرجون ملك أكد^(٤٤) . والعلامات فى اللغة البابلية كالعلامات فى اللغة السومرية ، لا تدل على حروف وإنما تدل على مقاطع . ذلك أن البابليين لم يضعوا لهم حروفا هجائية مستقلة ، بل ظلوا طوال عهدهم قانعين ببطافة من المقاطع يرمزون لها بنحو ثلاثمائة علامة من العلامات وقد كان حفظ هذه الرموز المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية المنهج المقرر فى مدارس الهيكل ، حيث كان الكهنة يلقنون الشباب ما هو خليق بالدرس والمعرفة ، وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة وجدت على أرضها ألواح طينية لبنية ونيات كتبت فيها حكم أخلاقية تحت على الفضيلة قبل مولد المسيح بنحو ألفى عام^(٤٥) . وكانت أسطورة (جلجاميش) أبرز أساطير الأبطال ، فامتدت عبر حدود أرض الرافدين إلى أساطير الشعوب المجاورة^(٤٦) .

جلجاميش رجل يبحث عن الخلود ، وتتميز الملحمة بأن موقفها من الحياة ذاتى جديد نسبياً ، وهوفى أساسه شديد التشاؤم ، فالأبطال أنفسهم لا يستطيعون الفرار من الموت و طرق المجد لا تؤدى إلا إلى القبر ، والقصة التى تصفها القصيدة قد لا تكون أسطورية فى جميع تفاصيلها ، فهى تصور البطل ملكاً على مدينة (أرك) (Uruk) ، وكان هناك فعلاً ملك عليها يسمى جلجاميش ، فلعل مغامراته بعد أن ضخمتهما الأساطير هى منشأ تلك الأسطورة .

كان جلجاميش هو الرجل الذى رأى كل شئ وعرف الأسرار

الخفية واكتشف سر الحكمة ، ولكنه كان يضطهد شعبه ، فأرادت الآلهة أن تقيم منافساً يناوئه ، ولم يكن بين الأحياء ند له ، فخلقت الآلهة من يضارعه وسمته (Enkidu) ولكن البطلين، بعد مغامرات مختلفة ، يصيحيان صديقين ويقومان معا بأعمال فذة مروعة ، وبعد انتصارهما على المسخ الخفيف الذى يسكن غابة الأرز ، تعجب الآلهة (عشتر) نفسها بجلجاميش ، وتعرض عليه الزواج منها ، ولكنه يرفض العرض ، ويميرها بقصص غرامها الكثيرة المتسمة بالقسوة غير آبه لغضبها (٤٧) .. إلى آخر الملحمة .

وتستحق هذه الملحمة أن تتبوأ مكانها فى الأدب العالمى ، لا لأنها سبقت الملحمة الهومرية بألف وخمسمائة عام على الأقل فحسب ، بل من أجل نوع القصة التى تروىها وطبيعتها فهى مزاج من المغامرة الخالصة والأخلاقيات والمأساة ، ونحن من خلال الحدث نشهد اهتماماً بشراً غاية فى البشرية بالفناء والبحث عن المعرفة وعن مهرب من القدر المشترك للإنسان ، وليس من الممكن أن تكون الآلهة مأساوية طالما أن الآلهة لا تموت ، ولئن لم يكن جلجاميش هو أول بطل من البشر ، فإن أول بطل مأساوى نعلم عنه شيئا ، وهو على الفور أقرب الأبطال إلى نفوسنا ، كما أنه النموذج الأكثر تمثيلاً للإنسان الفرد فى سعيه إلى الحياة والفهم ، وهو سعى من شأن خاتمته أن تكون مأساة ، ولربما كان من المدهش أن شيئا ما قديماً كقديم قصة نرجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، تبقى له القدرة على أن يتحرك ويظل يجتذب القراء فى القرن العشرين بعد الميلاد ، لكن هكذا كان شأنه ، وبالرغم من أن السرد ناقص وأن من

الممكن أن يظل السرد على نقص ، فإن ملحمة جلجاميش اليوم هي أجمل الشعر الملحمي الذي تبقى من أى فترة حتى ظهور إلياذة هوميروس ، وإنها لأقدم من هذه بزمان (٤٨) .

ولدينا قرينة قوية على أن أكثر أشعار جلجاميش دونت فى القرون الأولى من الألف الثانية قبل الميلاد ، وعلى احتمال وجودها بعين الصورة إلى حد كبير منذ قرون كثيرة قبل ذلك ، فى حين أن التنقيح الأخير والنشرة الأكثر اكتمالاً ترجع إلى القرن السابع ق. م ، حيث قام عليها بعل (آشور بنيبال Assur banipal) آخر عاهل عظيم حكم الامبراطورية الآشورية ، وهو ملك ، كان مهتماً بالاثار القديمة . ولقد كان آشور بنى بعل هذا قائداً رهيماً ، وهو الذى اجتاح مصر وسوسة ، غير أنه جمع مكتبة ممتازة من السجلات التاريخية المعاصرة ، وكثيراً من الأناشيد والأشعار والنصوص العلمية والدينية العتيقة . وهو يحدثنا بأنه أرسل أتباعه ليفحصوا سجلات مراكز العلم القديمة فى بابل وأوروك ونيبور ، ولينسخوا ويترجموا إلى اللغة السامية الأكديّة المعاصرة تلك النصوص التى كانت مكتوبة باللغة السومرية الأقدم بأرض النهرين . ومن هذه النصوص « التى دونت وفقاً للأصل وجرت مقارنتها فى قصر آشور بنى بعل ملك العالم وملك آشور » ، كانت تلك القصيدة التى نسميها ملحمة جلجاميش (٤٩) . ومن الأفكار التى يمكن وسمها « بالفلسفية » ما جاء فى أحد مقاطع الملحمة من نصح لجلجاميش ألا يشغل ذهنه بالحياة بعد الموت ، وأن يفعل عكس ذلك ، بالاهتمام بهذه الحياة الدنيا التى نحياها (٥٠) .

أى جلجاميش ، لم هذا الجرى فى جميع الجهات ؟

إن الحياة التى تسعى لها لن تجدها أبدا .
إن الآلهة حين خلقت بنى الإنسان قدرت الموت على بنى
الإنسان .

واحتفظت بالحياة فى أيديها .
أى جلعاميش . املأ بطنك .
وكن مرحاً بالنهار والليل .
بالنهار وبالليل كن مبهجاً راضياً
وطهر ثيابك

واغسل رأسك ، اغتسل بالماء .
والق بالك إلى الصغير الذى يمسك بيدك .
واستمع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك .

وقد نجح البابليون فى صنائعهم الضرورية والكمالية نجاحاً عظيماً
فمبانيهم تشهد لهم باتساع مخيلاتهم ، وترعهم وجسورهم تبرهن
على مهارتهم فى الهندسة ، وهذه كلها تستلزم تعليماً فنياً راقياً .
أما تربيته الأخلاقية فكانت قاصرة على ما تعلمه الفرد من ديانتة
التي لم تهذب إلا من أخلاق الفئة القليلة التي اعتقدت وجود اله
أكبر ، وميزت بين الحسنات والسيئات ، وبين جزاء كل منها فى
الآخرة (٥١) .

ويذهب ديودوروس الصقلي إلى أن تربية أبناء كهنة البابليين
بدأت منذ نعومة أظفارهم ، لأن العلوم التي تحتم عليهم دراستها ،
شغلت زمناً طويلاً جداً واحتاجت إلى ملاحظات ورصد شخصي
يستغرق سنين عديدة ، أما فن الطب فكان قاصراً على اختراع
معادلات ورموز سحرية تخرج العفاريث من الأجسام كما أشرنا .

ولم تكن التربية العالية قاصرة على فئة الكهنة فقط ، بل عمت أيضاً طبقة الكاتبيين ، لكن الكاتب البابلى لم يتمتع بالمنزلة الرفيعة التى تمتع بها أخوه فى مصر الفرعونية .

وكان الشطر الأكبر من أعمال الحكومة المركزية أو المحلية فى أيديهم ، فكننت تراثهم فى المجتمعات الكبيرة وفى قصر الملك وفى المعابد والمحال التجارية والمساكن الخصوصية. ولم يختلف تعليمه كثيراً عن تعليم الكاتب المصرى ، فدرس نظام الأعمال الإدارية والقضائية وأنواع الرسائل سواء كانت للأشراف أو للعامة وفن الخط وحل الأعمال الحسابية بسرعة واستخراج صكوك البيع صحيحة ، وكانوا يكتبون على لوحات من الصلصال اللين بقلم يشبه المسامير يرسلونها إلى صانع الفخار ليضعها فى الأتون كى تجف وتصبح صلبة أو يضعونها فى أفرانهم الخصوصية ، وكثيراً ما كانوا يستبدلون اللوحات المذكورة بأسطوانات مفرغة يكتبون عليها الحوادث الهامة ، ولقد وجد كثير من أحكامهم القضائية وعقودهم مكتوبة على أسطوانات من هذا القبيل (٥٢).

ولم يكن التعليم العالى قاصراً على الكهنة والكاتبيين فقط ، بل تعداهما إلى أفراد الطبقة العائلية ، وإنا لنجد عند مطالعتنا تاريخ الأمم الشرقية أن ملوكهم كثيراً ما كانوا يأخذون الشبان النبلاء ليتعلموا فى القصر الملكى كى يخدموا الأمة فى المستقبل ، ولقد استمرت هذه العادة عند الكلدانيين إلى ما قبل ميلاد المسيح بقرون قليلة (٥٣). ولدينا مثل تاريخى عظيم يثبت قولنا ، والمثل مأخوذ من (الكتاب المقدس) ، فلقد جاء فى الإصحاح الأول من باب النبى دانيال ، أنه عندما ذهب (نبوخذ ناصر) ملك بابل إلى أورشليم وحاصرها وامتلكها (٥٤) :

وأمر الملك (اشفنز) رئيس خصيائه بأن يحضر من بنى اسرائيل ومن نسل الملك ومن الشرفاء فتيناً لا عيب فيهم حسان المنظر حاذقين فى كل حكمة وعارفين معرفة ، وذوى فهم بالعلم والذين فيهم قوة على الوقوف فى قصر الملك فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم وعين لهم الملك وظيفة (طعام) كل يوم بيومه من أطيب الملك ومن خمر مشروبه لتريتهم ثلاث سنين ، وعند نهايتها يقفون أمام الملك . وكان بينهم من بنى يهوذا دانيال وحنينا وميشائيل وعزريا ، فجعل لهم رئيس الخصيان أسماء ، فسمى دانيال : بلطشاصر ، وحنينا : شلرخ ، وميشائيل : ميشخ ، وعزريا عبدنغو .

الآشوريون

يقسم المؤرخون تاريخ بلاد الآشوريين إلى حقبتين ، تمتاز الأولى وهى التى تمتد من حوالى سنة ٢١٠٠ إلى ٩٠٠ ق . م بفترة نضال عنيف ، تكون فيها الآشوريون تكويناً سياسياً وعسكرياً ، وهى فترة طويلة تعرض فيها الآشوريون إلى محن وأخطار خلقت منهم القوة العسكرية التى سجلها التاريخ على صفحاته ، أما الحقبة الثانية ، وتمتد من سنة ٩٠٠ إلى سنة ٦١٢ ق.م فهى تمثل طور النضج السياسى ، بعد أن اجتاز الآشوريون محنهم ، واستقرت لهم الأمور ، وأسسوا امبراطورية واسعة الأطراف امتازت بطول عصرها ، وتفوق الأنظمة الإدارية التى اتبعوها لإقرار سيطرتهم ، وذلك بالنسبة إلى الامبراطوريات التى ظهرت على أيدى رجال خرجوا من البيئة الجنوبية (٥٥) .

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدن ترويهامياه نهر دجلة

وروافده ، وهى آشور وأربلا والكلخ ونيوى ، على الضفة المقابلة لمدينة الموصل شمال العراق (٥٦).

وكان الآشوريون خليطاً من الساميين الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضرة (أمثال بابل وأكد) ، ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب ، وأخذ كل هؤلاء لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر ، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفرق فى شىء عن لغة أرض بابل وفنونها (٥٧).

وقد استمرت هذه المنطقة أكثر من عشرة قرون فى مهب الريح ، لاتعرف راحة ، ولم تذق طعم الطمأنينة ، فالخطر يحيق بهم من كل جانب ، وكان عليهم أن يقاوموا ، ويقاوموا حتى لا يستسلموا ، فغبروا القتال ، وجعلوا منه وسيلتهم للمحافظة على كياناتهم ، ولعل آشور هى الأمة الأولى التى عرفت قيمة الجيوش القائمة ، بل وقامت حياتها على النظم العسكرية ، ولذلك نراهم عندما ظهروا فى التاريخ كأمة متماسكة الأطراف ، قد برزوا وتفوقوا فى نظامهم ، وتماسكوا ، ولم يفشلوا فى تاريخهم السياسى بالسرعة التى رأيناها ، بالنسبة إلى الدول التى قامت فى الجنوب ، والتى عاشت وامتدت أطرافها تحت حكم ملك معين من ملوكها ، ثم لا تلبث أن تتفكك وتتلاشى بموته (٥٨).

وفى فترة من الفترات وجدنا حكومة آشور بانيبال تضم تحت جناحيها امبراطورية ضخمة تشمل بلاد : آشور ، وبابل ، وأرمينية ، وميديا ، وفلسطين ، وسوريا ، وفينيقيا ، وسومر ، وعيلام ، ومصر (٥٩).

ولم تكن الروابط الاجتماعية بين أفراد الأسر الآشورية بتلك

القوة التي ربطت بين أفراد الأسرة البابلية . ونحن نلاحظ أن قانون (حمورابى) قد حافظ بشكل واضح على الحقوق الشخصية لكل أفراد الأسرة ، بينما نجد أن الآشوريين أعطوا سلطة مطلقة لرب الأسرة ، وصلت إلى حد أنه يستطيع بيع أطفاله وربما قتلهم أيضا (٦٠).

ولقد كانت حقوق المرأة عند الآشوريين ضئيلة ومنزلتها غير سامية ، ولم يكن يسمح للمتزوجات من السيدات اللاتي ينتمين إلى الطبقة الحرة أن يخرجن إلى الطريق العام دون حجاب ، وبهذه الوسيلة كان يمكن تمييزهن من نساء الطبقات الأخرى ، وكانت القوانين تهدف إلى إحاطة المرأة الحرة بكثير من الضمانات ، لكي تبقى عفيفة ، آمنة على عرضها ، ولذلك كانت عقوبة الزوجة الزانية شديدة ، تبلغ حد الإعدام لها ولعشيقها.

وكان آشور تشجع الإكثار من النسل ، شأنها فى ذلك شأن جميع الدول العسكرية.

وكانت (آشور) - بتشديد الشين أو تخفيفها - هو الإله القوى للآشوريين وكبير آلهتهم حتى نهاية امبراطوريتهم (وكانوا ينطقون اسمه أسور ، بسين مشددة)، وفى النسخة الآشورية من قصيدة (الخلق) يجده محل الإله البابلى (مزدك) ، فقد أراد الآشوريون أن يكون لهم إلههم ، لا إله البابليين ، هو قاهر تهامة وخالق الكون . فكما حل مزدك لدى البابليين محل (أنليل) كبير آلهة السومريين ، حل الإله آشور لدى الآشوريين محل مزدك البابلى ، وهكذا كان الدين عوناً للسياسة ، وصدى لمطامح المدن والشعوب والملوك (٦١).

ومن الطبيعى أن تنعكس نزعة الآشوريين الحرية فى فكرتهم عن الهمم القومية ، فأعداء الملك والشعب ، هم أعداء الإله ، وبأمر الإله

يخرج ملوك آشور للحرب ، وبقدرته وعونه يكتب لهم النصر ، ومنه يستمد الملك الأسلحة التي تحقق النصر في المعركة ، وإليه يساق المغلوبون خاضعين ، لا القواد والجند فحسب ، بل آلهتهم المقهورة أيضاً ، إذ يؤتى بتمائيلها إلى معبده .

ونشهد في كثير من نواحي الحياة الآشورية صرامة أبوية نراها طبيعية في شعب يعيش في فتوحه ، ويعيش على حدود الهمجية ، بكل ما يشمله هذا اللفظ من معان ، وكانوا يجدون متعة - أو تدريباً ضرورياً لأبنائهم - في تعذيب الأسرى وسمل عيون الأبناء أمام آباءهم ، وسلخ جلود الناس أحياء وشى أجسامهم في الأفران ، وربطهم بالسلاسل في الأقفاص ليستمتع العامة برؤيتهم^(٦٢) .

وكان ذلك جوا لا يزدهر فيه من العلوم إلا علم الحروب ، فقد كان الطب الآشوري هو الطب البابلي لم يزدوا عليه شيئا ، ولم يكن علم الفلك الآشوري إلا التتجيم البابلي ، فكان أهم غرض تدرس من أجله النجوم ، التنبؤ بالغيب . ولسنا نجد عندهم شواهد على البحوث الفلسفية ، ولم نعثر على ما يثبت أنهم حاولوا أن يفسروا العالم من غير طريق الدين . وقد وضع علماء اللغة الآشوريون قوائم بأسماء النباتات ، ولعلمهم وضعوها ليستعينوا بها في صناعة الطب ، وبذلك قدموا بعض العون لعلم النباتات ، ووضع غير هؤلاء من الكتبة قوائم تكاد تحتوى على كل ما كان على الأرض من أشياء ، وكان فيما حاولوه من تصنيفها بعض العون لعلماء التاريخ الطبيعي من اليونان ، وأخذت اللغة الانجليزية من هذه الكشوف ، عن طريق اللغة اليونانية في الغالب ، بعض الألفاظ الانجليزية^(٦٣) .

ومن الألواح التي أُنشئت عن الآشوريين نجد بعضها قد اتخذ

صبغة عملية وعلمية ، فكان منها ما نتحدث عن مركبات الزجاج وأطلية الخزف ، ووجدت منها جداول تتضمن بضع مئات من أسماء النباتات تداخل بعضها في بعض وعبر بعضها عن خصائص نباته وثماره واستعماله ، مثل نبات القنب الذى أسموه نبات الغزل ونبات الهموم نظرا لمفعوله المخدر الذى ينسى الهموم^(٦٤) .

وتضمنت الألواح تفاصيل عقاير نباتية رب كل منها باسم النبات ونوع المرض الذى يعالجه ثم طريقة تعاطيه ، فكان منها مايقول : « العرقسوس لمعالج السعال ، يذق ويشرب مخمرا » ، « والصير دواء للصفراء ، يذق ويشرب » وكان فى اطلاق بعض ملوك الآشوريين ، لاسيما الملكين آشور أختادين ، وآشور بانينال على أشباه هذه العقاير والوصفات ماجعلهم يبدون اهتماما كبيرا بنشاط أطبائهم ويرسلونهم خصيصا لمعالج أصلقاتهم ثم يلقون تقارير عنهم وعن علاج ذوى قرباهم بخاصة ، وكثيرا ما اختتمت نصوص الألواح بتحذير القارئ من سرقتها أو كسر طابع مكتبتها الخاصة أو العامة ، وإلا تعرض لنقمة الآلهة .

وانتفع الكتبة الآشوريين بأساليب المعاجم القديمة فى بابل ، وزادوا مفرداتها و مترادفاتها الأجنبية نتيجة لاتساع صلات دولتهم بجيرانها ، وضمنوها مفردات خاتية وكاسية ومصرية ، وبعد أن كانوا يؤرخون نصوصهم فى عصرهم الآشورى الوسيط بأسماء الشهور : كيناته ، وسين ، والاناتو ، وشاساراه ، ومايشبها من أسماء غريبة ، أصبحوا يذكرون شهورهم فى عصرهم الحديث بأسماء : أبو ، وتشرينو ، وتمرز ، ونيسانو ، وأدارو ، وأولو ، وهى نفس الأسماء المعروفة للشهور الآرامية الباقية حتى الآن ، مع تغييرات لفظية طفيفة^(٦٥) .

ولعبت العرافة دوراً هاماً فى حياة الآشوريين ، وتقبلها ملوكهم بقبول حسن ، وتكفل بها كهنة وكاهنات كان من أنشطتهم كهنة المعبود آشور وكاهنات المعبودة إشتار أربلا ، ويدلو أنهم كانوا ينطقون بتنبؤاتهم وهم فى غيبوبة أو حالة انجذاب فتؤخذ على أنها صادرة من روح المعبود عن طريق وساطتهم ، ثم يدونها ككتبتهم ويرسلونها إلى القصر إذا كانت تتعلق بشخص الملك ومشروعاته . ومن طريف ما تلقاه آشور أخادين من كاهنة إشتار أنها بعد أن وعدته النصر على أعدائه توقعت ترده فى تصديق نبوءتها ، فقالت له « ماذا فى قولى الذى تحدثت به إليك لا تستطيع أن تعتمد عليه ؟ » وقالت له كاهنة أخرى من إبلا تدعى « بعله أيشا » على لسان ريتها إشتار: « لم تصدق النبوءة السابقة التى تحدثت بها إليك ؟ صدق هذه وادعنى يوم اشتداد العاصفة ...، واشكرنى .. » وأفسحت حروب آشور بانيبال مع أخوته ، وفى أنحاء مملكته مجالا خصباً لتنبؤات العرافين وأمنيات المتزلفين (٦٦) .

ويمتاز الأدب الآشورى بأنه نحا نحواً جديداً فى ميدان المراسلات الكتابية، وتسجيل الأحداث ، ويتضمن أدب الرسائل المكاتبات التى كانت ترسل إلى مختلف أرجاء الامبراطورية ، ومنها يتبين بوضوح ، أن الحكومة المركزية كانت تتلقى باستمرار تقارير مستفيضة عما كان يحدث فى كل منطقة من أحداث مختلفة ، لا تتعلق فقط بالحياة الإدارية أو العسكرية ، بل أيضاً بما يحدث من أشياء غريبة تدخل فى نطاق التنبؤات (٦٧) .

غير هذا ، فهناك خطابات يتحدث فيها أصحابها عن أشياء مختلفة ، منها ما يتعلق بالأمراض المختلفة وما يجب على الإنسان أن

يتناوله من عقاقير وكذلك رقى تطرد الأرواح الشريرة . كل هذه الخطابات ترد تباعاً إلى الملك تخبره عن كل صغيرة وكبيرة تحدث في الدولة ، ثم تحفظ في المكتبة الملكية ولقد عثر على مكتبة (آشور نبينال) وبها عشرات الآلاف من هذه الرسائل المكتوبة على اللوحات الطينية ، بعضها باللغة الآشورية ، والبعض الآخر باللغة البابلية .

أما تسجيل الأحداث التاريخية ، فقد اختلف في طريقة كتابته عن الوثيقة الماثلة في عصر البابليين ، فملوك بابل حرصوا على تسجيل ما قاموا به من أعمال شتى لاقرار النظام ، والعمل على تشجيع العلوم والآداب وكذلك لدفع الأخطار عن حدود الدولة ، بينما ملوك آشور عملوا على الإشادة بأعمالهم الحربية فحسب ، ولم تكن النقوش المنتشرة في قاعات القصر الملكي تحوى شيئاً غير تمجيد أعمال صاحبه العسكرية .

العلاقة بين الحضارة المصرية والحضارة العراقية

ومنذ منتصف القرن الحالي وهناك من يتساءل : أيهما أقدم من الأخرى (١٨٠٩) ؟ قد اختلف علماء التاريخ القديم اختلافاً كبيراً فيما بينهم عن الإجابة على هذا السؤال في أبحاثهم التي ظهرت منذ ثلاثة أرباع قرن ، فمنهم من تعصب ، ومازال متعصباً لمصر ، ومنهم من تعصب ، ومازال متعصباً للعراق ، ولكن تعصب هذا العالم أوشك ذلك الباحث لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، فقد نشأت في الألف الرابع قبل الميلاد في كل من مصر والعراق ثقافات قائمة بذاتها ، وأخذ كل منها يتقدم على انفراد . وتطورت الحياة الاجتماعية في كل من البلدين تطورها الطبيعي ، وقد تمكن سكان العراق القدماء

من الوصول فى بعض النواحي إلى درجة من التقدم جعلتهم يسبقون إخوانهم فى وادى النيل ، فوصلوا إلى ما لم يصل إليه سكان مصر فى العصر الذي نسميه عصر ما قبل الأسرات (٦٩) .

ومن الثابت أيضا - وفقا لأحداث النتائج التي وصلت إليها أبحاث الأثريين - أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة ببعضها البعض ، وكانت التجارة قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما أخذت الهجرات تتوالى بين بعضها وبعض ، فأتصلت العراق ومصر ، وكانت مصر اذ ذاك تجتاز فترة انتقال وتطلع ، فأنمرت هذه الصلة وأخذت مصر من العراق شيئا من مظاهر حضارية ، مثل الأختام الأسطوانية التي عثر عليها فى مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية ، وهذه الأختام الأسطوانية كانت معروفة فى العراق فى العصر الذي يطلق عليه الأثريون عصر قبيل اختراع الكتابة (٧٠) .

ولم يقتصر الأمر على الآثار الصغيرة التي يسهل نقلها كاحدى السلع التجارية، بل تعداها إلى أشياء أخرى أعمق أثرا . وما يثبت أن مصر أخذت هذه الأشياء عن العراق ، أن أكثر هذه التأثيرات والمظاهر الفنية ظلت فى العراق إلى آخر أبان بينما اختفت من مصر بعد الأسرة الأولى ، لأنها كانت غريبة على البلاد وعلى ذوق أبنائها ، فمضرت منه ما استساغته ونبتت ماعده . وقد حملت كثرة تأثيرات فن بلاد العراق فى الفن المصرى فى ذلك العصر المبكر بعض علماء الآثار إلى القول باحتمال هجرة كبيرة من العراق إلى مصر ، وزعم آخرون باحتمال غزو أو أن أصل الملك مينا من سومر وكلها مزاعم خيالية (٧١) .

هوامش الفصل الثاني

- ١- عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٩٠ . ص ٤٣١ .
- ٢- عبد المنعم أبو بكر : العراق القديم تاريخه وحضارته ، فى : ابراهيم رزقانة وآخرون ، حضارة مصر والشرق القديم ، القاهرة ، نهضة مصر ، دت ، ص ٢٦٢ .
- ٣- أ . تويني : مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد محمد شبل القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٦ ، ج ١ ، ص ٤٨ .
- ٤- سبتيو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة دار الكاتب العربى ، دت ، ٦٦ .
- ٥- أحمد سوسة : حضارة وادى الرافدين بين الساميين والسومريين ، بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠ ، ص ١٥ .
- ٦- المرجع السابق ص ١٨ .
- ٧- المرجع السابق ص ٢٠ .
- ٨- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، م ١ ، ج ٢ ، ١٩٧١ ، ص ١١ .
- ٩- محمد السيد غلاب ويسرى الجوهري : الجغرافيا التاريخية . عصر ما قبل التاريخ وفجره ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٢ ، ص ٣٩٩ .
- ١٠- الحضارات السامية القديمة ، ص ٦٧ .
- ١١- عبد المنعم أبو بكر ، العراق القديم ، ص ٢٨٠ .
- ١٢- ستيتشفيتش : تاريخ الكتاب ، ترجمة ، محمدم . الأرنؤوط . الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم

- المعرفة (١٦٩) ، يناير ١٩٩٣ ، ج ١ ، ص ١٢ .
- ١٣- المرجع السابق ، ص ١٤ .
- ١٤- أحمد سوسة : حضارة وادي الرافدين ، ص ٤٢ .
- ١٥- المرجع السابق ، ص ٤٣ .
- ١٦- المرجع السابق ، ص ٤٤ .
- ١٧- عبد المنعم أبو بكر ، العراق القديم
- ١٨- المرجع السابق . ص ٢٨٤
- ١٩- عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، ج ١ ، ص ٤٥٣ .
- ٢٠- المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .
- ٢١- محمد بيومي مهران : تاريخ العراق القديم ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠ ، ص ٥٩ .
- ٢٢- المرجع السابق . ص ٦٠ .
- ٢٣- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٥ .
- ٢٤- المرجع السابق ، ص ٢٦ .
- ٢٥- المرجع السابق ، ص ٣١ .
- ٢٦- المرجع السابق ، ص ٣٥ .
- ٢٧- المرجع السابق ، ص ٤٠ .
- ٢٨- المرجع السابق ، ص ٤١ .
- ٢٩- عبد المنعم أبو بكر ، ص ٢٨٥ .
- ٣٠- المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .
- ٣١- محمد بيومي مهران ، تاريخ العراق القديم ، ص ١٩٦ .
- ٣٢- المرجع السابق ، ص ١٩٧ .
- ٣٣- الحضارات السامية القديمة ، ص ٦٨ .

- ٣٤- قصة الحضارة ، م ١ ح ٢ . ص ١٨٨ .
- ٣٥- صوفى أبو طالب : مبادئ تاريخ القانون ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٦ .
- ٣٦- المرجع السابق ، ص ١٥٩ .
- ٣٧- الحضارات السامية القديمة ، ص ٩٧ .
- ٣٨- عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، ج ١ ، ص ٥٣٣ .
- ٣٩- المرجع السابق ، ص ٥٣٤ .
- ٤٠- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .
- ٤١- الحضارات السامية القديمة ، ص ٢٦٦ .
- ٤٢- المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .
- ٤٣- الحضارات السامية القديمة ، ص ٧٩ .
- ٤٤- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .
- ٤٥- المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .
- ٤٦- الحضارات السامية القديمة . ص ٨٦ .
- ٤٧- المرجع السابق ، ص ٨٧ .
- ٤٨- ن . ك . ساندروز : ملحمة جلجاميش : ترجمة محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضى . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ، ص ٩ .
- ٤٩- المرجع السابق . ص ١٠ .
- ٥٠- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .
- ٥١- أحمد فهمى القطان : تاريخ التربية ، ج ١ التربية قبل الإسلام ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، ١٩٢٣ ، ص ٥٦ .
- ٥٢- المرجع السابق ، ص ٥٩ .
- ٥٣- المرجع السابق .

- ٥٤- الكتاب المقدس ، ص ٩٨٢ ، بيروت ، ١٩٠٦ .
- ٥٥- عبد المنعم أبو بكر ، ص ٣٢١ .
- ٥٦- قصة الحضارة ، م ١ ج ٢ ، ص ٢٦٥ .
- ٥٧- المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .
- ٥٨- عبد المنعم أبو بكر ، ص ٣٢٠ .
- ٥٩- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .
- ٦٠- عبد المنعم أبو بكر ، ص ٣٤١ .
- ٦١- الحضارات السامية القديمة ، ص ٢٦٤ .
- ٦٢- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٨١ .
- ٦٣- المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .
- ٦٤- عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم ، ج ١ ، ص ٦٢٠ .
- ٦٥- المرجع السابق ، ص ٦٢١ .
- ٦٦- المرجع السابق ، ص ٦٢٢ .
- ٦٧- عبد المنعم أبو بكر ، ص ٣٤٥ .
- ٦٨- أحمد فخرى : الاتجاهات الحديثة في المباحث التاريخية والآثرية الخاصة بالشرق القديم ، في (المجلة التاريخية المصرية) ، م ٣ ، ع ٢ ، أكتوبر ١٩٥٠ ص ص ١- ٢٥ .
- ٦٩- أحمد فخرى : دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٥٠ ، ص ٢٥ .
- ٧٠- المرجع السابق ، ص ٢٦ .
- ٧١- المرجع السابق ، ص ٢٧ .



الفصل الثالث الترجمة الهندية

المعالم الرئيسية للتطور الحضارى

تمتاز بلاد الهند بخصوبة أوديتها ، وتعدد نباتها وكثافة غاباتها وتعدد مسالكها ، وكثرة معارجها ومصاعبها ومهابطها وتباين أجوائها ومناخاتها ، ووفرة التناقض الطبيعي فى أرضها وسمائها ، فبينما نرى فيها جبالاً شاهقة تتجاوز السحاب سما ، وهضبات متفرقة يفصل بعضها عن بعض هوى سحيقة وحفر طبيعية عميقة ، وتلالها تتخللها من جهة كثبان ضخمة ، وتعرضها من الجهة المقابلة صخور عظيمة التواء ، صعبة الاجتياز ، إذا بك ترى إلى جانب هذا أودية مبسوطة ومروجاً باسمه تتباهى بما تزدان به ألوان الزهور وأفانين الشمار والبقول ، وكذلك جوها لا تكاد تحس بدفئه وحرارته حتى تفاجأ ببرده ورطوبته ، ولكن الحرارة هى العنصر الرئيسى السائد فى بلاد الهند ، فتلك الحرارة التى أضعفت الأبدان وقصرت الشباب وأنتجت للناس هناك ديانتهم وفلسفتهم المسالمتين ، فليس يخفف عنك هذه الحرارة إلا أن تجلس ساكناً لاتعمل شيئاً ، ولا ترغب فى شيء^(١).

وكان لهذا التعدد والتباين فى كل شيء ، أثراً بارزاً فى عقلية الهنود .

وقد استطاع التاريخ أن يتغلغل بالمدنية الهندية فى أغوار الماضى مدى ثلاثين قرناً قبل المسيح ، إذ يحفلنا أن تلك الأودية كانت فى ذلك العهد مأهولة بقوم من الجنس السامى ، لهم مدنيتهم وديانتهم

وتفكيرهم ، وأن هؤلاء القوم قد أسهموا فى بناء صرح المدينة العالمية بتصيب وافر ، وكان لهم فى تاريخ الفكر البشرى مجهود جبار ظل مجهولاً أو غامضاً على الأقل حتى تم الكشف عنه (٢) .

فقد كانت الهند قبل الفتح الأرى قبائل متفرقة أو شعوباً صغيرة ، لكل شعب حاكمه وقوانينه ، وعقائده وعاداته ، وأن الوحدة السياسية والعمرانية إنما وجدت فيها على أيدي أولئك الفاتحين . احتل أولئك الآريون تلك الأصقاع المتمدية وطغوا على مدنيتهما ودياناتها طغياناً محاساً من صحائف أذهان الخاصة ، وإن كان لم يستطع أن يمحوها من صحائف الوجود ، بل لا من أذهان العامة والجماهير ، وتدل دراسة الديانة الهندية بوجه عام على أن الهند هى ، بعد مصر ، البقعة الثانية التى يصح أن يطلق عليها اسم أرض الآلهة والتى لا يفوقها فى تعدد مشاكلها الدينية وكثرة آلهتها وصعوبة تحديد اختصاصاتهم وسعة الخيال وخصويته فى تصوير المعبودات إلا مصر (٣) .

فمن هؤلاء الآريون الذين كانوا يضرهون فى الأرض ؟ أما هم أنفسهم فلقد استعملوا كلمة (آرى) ليعنوا بها « الأشراف » ، (فى السنسكريتية ، آرى معناها شريف) ، ومن المرجح أن يكونوا قد جاءوا من تلك المنطقة القزوينية ، وكان هؤلاء الآريون أقرب إلى المهاجرين منهم إلى الفاتحين ، جاءوا وهم على درجة من الوحشية لا تجعلهم يترددون فى الهجوم ، وكانوا من الأخلاق البدائية على درجة لا تسمح بالثقافة ، ولذلك أخضعوا الهند دون أن يدعوا أنهم يرفعون مستواها .

ولم تلتق تربة الهند بنور المدنية عن رضا ، فقد كان شطر عظيم

منها تغطيه الغابات التي تسكنها وتذود عنها سباع ونمور وفيلة
وثعابين وغيرها من الكائنات ، فقام صراع حيوى لانتزاع الأرض من
هذه الأعداء ، ولما خلصت الأرض على مر الزمن من الكواسر ،
تحولت إلى حقول يزرع فيها الأرز والقطنى والذرة والخضر
والفاكهة^(١)

وكما هى الحال فى كل أرجاء العالم ، كان فى الهند تفاوت
واسع بين الفقر والغنى ، ولكنه لم يبلغ ما يبلغه اليوم فى الهند أو
أمريكا ففى أسفل السلم كانت هناك أقلية صغيرة من العبيد ،
ويتلوهم صعدوا فئة (الشودرا) الذين لم يكونوا عبيداً بقدر ما كانوا
مأجورين على عملهم ولو أن منزلتهم الاجتماعية كأجراء ، كانت
تورث ، كما هى الحال فى سائر المنازل الاجتماعية بين الهنود^(٢)

وقد ازداد النظام الطبقي تزمناً وتمقيداً منذ العصر الفيدي
(٢٠٠٠ - ١٠٠٠) ق . م لأن طبيعة النظم الاجتماعية من شأنها
أن تزيد تلك النظم صلابه على مر الزمن ، لأن اجتياح الهند - من
جهة أخرى - بالشعوب الأجنبية والعقائد الخارجية قد زاد من صلابه
نظام الطبقات ليقوم سداً قوياً يحول دون امتزاج دم الهنود بدم غيرهم
، فقد كان أساس الطبقات فى العصر الفيدي هو اللون ، ثم أصبح
الأساس فى العصور الوسطى الهندية هو المولد^(٣) .

وكان على رأس الطبقات وأكبر المستفيدين من نظامها ، طبقة
البراهمة ، وكان البراهمة يستمدون نفوذهم من احتكارهم للعلم ،
فهم القائمون على صيانة التقاليد ماشاءوا من تعديل ، وهم الذين
يتولون تربية النشء ، ويكتبون الأدب أو يقومون على نشر المكتوب
منه ، وهم الخبراء يكتب الفيلسا^(٤) .

وأخذت قوة الكهنة تزداد من جيل إلى جيل حتى أصبحوا أطول ما عرفه التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاء على وجه الدهر ، وذلك لاعتدالهم فى مراعاة هذه القواعد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم وجدوا شعباً أثقلته فلاحه الأرض فأخضعت لتقلبات الجو التى بدت لهم كأنها تقلبات أهواء شخصية فشغلهم ذلك كله عن النهوض بأنفسهم من الخرافة إلى نور العرفان.

وقد ارتبط التشريع الخلقى فى هذه البلاد بنظام الطبقات ارتباطاً يكاد لا يكون له انقسام . والأخلاق عندهم هى (ذارما) - أى أنها قواعد السلوك فى الحياة لكل إنسان كما تحدها له طبقته . ولكل مكان من ذلك النظام التزاماته وقيوده وحقوقه ، ولا مندوحة للهندوسى الورع أن يسلك حياته ملتزماً تلك الالتزامات والقيود والحقوق ، واجداً فيها قناعة الراضى بالطريق الذى مهد له لكى يسير فيه ولا يطوف بياله قط أن يجاوز حدود طبقته إلى طبقة أخرى (٨) . وكانت الأسرة الهندية من الطراز الأبوى الصميم ، فالوالد هو السيد الكامل السيادة على الزوجة والأبناء والعبيد . وكانت المرأة مخلوقاً جميلاً يحب ، لكنها أحط منزلة من الرجل .

وكانت أخلاقهم فى التجارة رفيعة المستوى ؛ ولو أن الملوك فى الهند الفيدية ، كما كان أقرانهم فى اليونان الهومرية ، لم يترفعوا عن اغتصاب الماشية من جيرانهم ، ولكن المؤرخ اليونانى الذى أرخ لحملات الاسكندر ، يصف الهندو بأنهم « يستوفون النظر باستقامتهم ، وأنهم بلغوا من سداد الرأى حداً يجعل التجاوزهم إلى القضاء نادراً ، كما بلغوا من الأمانة حداً يغنيهم عن الأقفال لأبوابهم وعن العهود المكتوبة تسجيلاً لما اتفقوا عليه ، فهم صادقون

إلى أبعد الحدود «^(٩). نعم فى سفر (رج - فيدا) ذكرأ للزواج المحرم وللتضليل وللمهد وللإجهاض وللزنا ، كما أن هناك علامات تدل على الانحراف الجنسى الذى يجعل الرجال يتصلون بالرجال ، إلا أن الصورة العامة التى نستمدّها من أسفار الفيدا ، ومن الملاحم ، تدل على مستوى رفيع فى العلاقات بين الجنسين وفى حياة الأسرة.

الفكر الفلسفى

والمفسرون للفلسفة الهندية هم فى العادة يهتمون بجلب الانتباه أولاً إلى عمقها ، وثانياً إلى قدمها ، أما بالنسبة لعمقها ، فليس فى ذلك أدنى شك ، ولو لم تكن الهند قد أكدت سر الحياة ، فإنها من المؤكد قد صاغت إلى حد بعيد ، أكثر المسائل جدارة بالتقصي عن الموضوع ، أما متى على وجه التحديد مناقشة مثل هذه المسائل ، فهو موضوع يختلف فيه الخبراء ، وأقدم أدب دينى هندى معروف ، عبارة عن مجموعة من الأناشيد تشكل الـ « ريج - فيدا » (Rij Veda) ، وكل ما نستطيع قوله ، هو أن هذه الأناشيد كتبت ما بين سنتى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م ، وهذا يضى عليها قدما كافيا^(١٠).

وليس الكتاب المقدس (الفيدا) كتاباً هندياً أصلياً ، وإنما هو كتاب (هندو آرى) ، حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادى (البنجاب) المقترح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضاً ، وإذا فهو لا يمثل العقلية الهندية ، ولا يصور المدنية القديمة التى كانت زاهدة فى تلك البلاد قبل وجوده فيها بأكثر من خمسة عشر قرناً ، بل بالعكس ، كثيراً ما يجد فيه القارئ صوراً عقلية واجتماعية هى على طرفي نقيض مع الصور التى كشفها الآثريون حديثاً للهند

المحلية الغابرة . وفوق ذلك ، فهو مكتوب باللغة السنسكريتية ، التي لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين من غير شك ، والتي هي لغة الآريين وحدهم ، غير أن هذا الكتاب لا يزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة في تاريخ الديانة الهندية (١١).

ولكلمة (فيدا) عدة معان أدقها : العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول .

وينقسم الفيدا إلى أربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذى تعالجه ، فالأولى تسمى (ريج فيدا) وهى تحتوى على الأوراد ، والثانية تسمى (سامان فيدا) وتحتوى علىى الأناشيد والثالثة (باحوس فيدا) وتحتوى على طقوس الضحايا والقرابين . والرابعة (أتارافيدا) ، وتحتوى على التعاويذ السحرية. (١٢).

وكان المقصود بالفيدا أن تستظهر ، وكانت التلاوة من الذاكرة فى الأصل ، لإجراء دينياً . ونحن نتحدث اليوم عن (الحفظ عن ظهر قلب) وليس عن ذهن أو عقل ، ولم يعلم أى طفل قط كيف يقرأ صلواته . وهذا الاستظهار كان بالغ الأهمية لدرجة أن الفيدا لابد أنها قد تنوقلت بالفم (ويتوقف الحفظ عن ظهر قلب على ممارسة شفوية) حتى أنها لم تسجل على الورق حتى مضى وقت طويل يعد أن صارت الكتابة واسعة الانتشار فى الهند . ولما كان هذا النسخ من المحتمل أن يكون قد حدث فى وقت متأخر يرجع إلى القرن التاسع ق . م ، فإنه يمكننا أن نحكم إلى أى مدى اعتمد الفكر الهندى القديم على ذاكرة شعبية . لقد أشار بعض النقاد إلى أن هذا الاعتماد الطويل على الرواية الشفهية يجعل من العيب

الادعاء بأن الفيدا ، التى كان من المفروض أنها انتقلت إلى الإنسان من الإله ، قد بقيت بدون تعديل منذ عهد غرق فى القلم (١٣).
وفى الفيدا نجد أناشيد موجهة تقريباً إلى كل مظهر من مظاهر الطبيعة وبصورة خاصة إلى تلك الموضوعات التى يمكن أن يحس الإنسان بتأثيرها المباشر ، مثل الشمس والرياح والماء والنار والضوء والقوة التسلطية التى تكمن فى الناس مؤكدة تكاثرهم ، وفى مخاطبتها مباشرة ك شخصيات ، تشكل آلهة (ريج - فيدا) نوعاً من تسلسل كهنوتى منظم يوحى بأن الأناشيد عناصر أقرها قانون إقامة الكهنة (١٤).

وتكمن القيمة العظيمة للـ « ريج - فيدا » فى تلك الأناشيد الدينية المسماة (المنتراس) والتى توجد معظمها فى الكتاب العاشر الذى يتناول الموضوعات الفلسفية وأهمها مايتناوله « نشيد الخلق » .
إنه يفكر كيف بدأ الخلق . أول كل شيء ، كانت هناك (الرجبة) البذرة الأولى وأصل (الروح) . هذه الفكرة التى وجه إليها البوذا وأفلاطون من بعده الكثير من الاهتمام ، ليست مفصلة هنا لأن الشاعر يهيمه أولاً رهبة واعجاز الخلق ولا يهيمه تفاصيل تركيبه ، وهو فى الواقع ينتهى بأسئلة بليغة عن قصد (١٥) :

من يعرف يقينا ، ومن يستطيع أن يعلنها هنا ، متى ولدت .

ومن أين يأتى هذا الخلق ؟

الآلهة لاحقون لخلق هذا العالم . من يعرف إذن

من أين جاء العالم إلى الوجود لأول مرة ؟

هو ، أول أصل لهذا الخلق ، سواء شكله كله أو لم يشكله

عيونه تراقب هذا العالم فى السماء العلى ، أما أنه يعرفه يقينا أو

لا يعرفه يقينا (١٦).

وبالنسبة لأسفار (يوبانشاد) نجد أنها أقدم أثر فلسفى ونفسى موجود لدى البشر ، ففيها مجهود بذله الإنسان دقيق دءوب ، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب ، محاولاً أن يفهم العقل وأن يفهم العالم ، وما بينهما من علاقة . هذا طبعاً اذا استثنينا التعاليم المصرية القديمة ، تعاليم (بتاح حوتب) (١٧).

والكلمة مؤلفة من مقطعين « يوبا » ومعناها « بالقرب » و « شاد » ومعناها « يجلس » ومن « الجلوس بالقرب » من المعلم ، انتقل معنى الكلمة حتى أصبح يطلق على المذهب الغامض اللفز الذى كان يسره المعلم إلى خيرة تلاميذه وأحبهم إليه ، وفى الأسفار مائة وثمان معاصرة؛ مما جرى بين المعلم وتلاميذه ، ألفها كثير من القديسين والحكماء بين عامى ٨٠٠ و ٥٠٠ ق . م ، وهى لا تحتوى على مذهب متسق الأجزاء ، بل تحتوى على آراء وأفكار ودروس لرجال عدة ، كانت الفلسفة والدين عندهم مائز الان موضوعاً واحداً ، وقد حاول هؤلاء الرجال بهذه الآراء أن يفهموا الحقيقة البسيطة الجوهرية التى تكمن وراء كثرة الأشياء الظاهرة ، حتى إذا فهموها ، وجنلوا أنفسهم بها توحيداً يحوطه اجلال الروع . وهذه الأسفار مليئة بالسخافات والمتناقضات (١٨).

ونقرأ فى سفر « ميتربى » من أسفار يوبانشاد عن ملك خلف ملكه وضرب فى الغابة متعشفاً زاهداً ، لعل عقله بذلك أن يصفو ليفهم ، فيجد حلاً للفرز هذا الوجود ، وبعد أن قضى الملك فى كفارته ألف يوم ، جاء حكيم « عالم بالروح » فقال له الملك : « أنت ممن يعلمون طبيعة الروح الحقيقية فهلا أنبأنا عنها ؟ فقال

الحكيم منذراً : « اختر لنفسك مآرب أخرى » لكن الملك يلح ،
ويعبر في فقره عن ضيقه بالحياة ، وخوفه من العودة إليها بعد موته ،
ذلك الخوف الذى تمتد جذوره فى كل ما تضطرب به رءوس
الهندوس من خواطر وأفكار ، تقول الفقرة (١٩) :

« سيدى ، ما غناء اشباع الرغبات فى هذا الجسد التتن المتحلل
، الذى يتألف من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومنى ودم
ومخاط ودموع ورشح أنفى وبول وفساء وصفراء وبلغم ؟ ما غناء
اشباع الرغبات فى هذا الجسد الذى تملؤه الشهوة والغضب والجشع
والوهم والخوف واليأس والحسد والتفور مما ينبى الرغبة فيه والاقبال
على مايجب التفور منه أو الجوع والظمأ والفقر والموت والمرض
والحزن. وما إليها ؟ وكذلك نرى هذا العالم كله يتحلل بالفساد كما
تتحلل هذه الحشرات الضعيلة وهذا البعوض وهذه الحشائش وهذه
الأشجار التى تنمو ثم تدوى .. »

وأول درس يعلمه حكماء اليوبانشاد لتلاميذهم المخلصين هو
قصور العقل ، اذ كيف يستطيع هذا المخ الضعيف الذى تتعبه عملية
حسائية صغيرة أن يطمع فى أن يدرك يوماً هذا العالم الفسيح المعقد ،
الذى ليس مخ الإنسان إلا ذرة عابرة من ذراته ؟ وليس معنى هذا أن
العقل لاخير فيه ، بل إن له لمكانة متواضعة وهو يؤدى لنا أكبر النفع
اذا ما عالج الأشياء المحسوسة وما بينها من علامات ، أما إذا حاول
فهم الحقيقة الخالدة ، اللانهائية أو الحقيقة فى ذاتها ، فما أعجزه
من أداة (٢٠) .

والكثير من اهتمام اليو بانشاد هو فى تتبع مراحل الجدل ،
وبالمثل فإنه من المثير أن تلاحظ التواضع الفكرى لكل من المعلم

والتلميذ . إن ما يدعون أنهم بلغوه ، ليس تطهيراً أو إنقاذاً ، بل معرفة الطريق إلى هذه الأمور ، لقد نادى بعض العلماء بأنه « ليس من أجل النظم التي تشيدها أو من أجل الحقائق التي يمكن القول بأنها اكتشفتها أنه لا بد من تقدير هذه الكتب المقدمة تقديراً عالياً ، بل تقديرها الحقيقي ، من أجل البساطة والجدية التي تعالج بها المشاكل الكبرى » . مثل هذه المعالجة يجب أن يوصى بها بكل تأكيد في مجال المفاضلة عن الجدل المجدب ، الذي كثيراً ما تكون المناقشات الفلسفية مقترنة به ، خاصة في الحياة الأكاديمية (٢١) .

ولدخول فرد ما جماعة دينية لا بد له من المرور بمجموعة من الطقوس التي تعتبر بصورة ما شكلاً من أشكال التربية الدينية ، ويتم ثلاثة من هذه الطقوس قبل الولادة لتشجيع الحمل ، وانجاب طفل ذكر ، وضمان صحة الجنين . وفيما بين الاحتفال بمولد الطفل والاحتفال بتسميته ، تراعى الأم والطفل طقوساً تستمر لمدة عشرة أيام ، وتسمى طقوس النجاسة والمراحل الأخرى من تطور الطفل التي تتميز بها (السمسكارا Samaskara) وهي مجموعة الطقوس اللازمة (للترسيم) هي خرم الأذن لأول مرة ، واللحظة التي يخرج فيها الطفل من البيت ليرى الشمس لأول مرة ، وكذلك المرة الأولى التي يتناول فيها طعاماً جافاً ، وإذا كان ذكراً فهي المرة الأولى التي يخلق فيها شعر رأسه - ما عدا خصلة من الشعر في قمة الرأس يتركها طوال حياته (٢٢) .

ويعد الترسيم الخطوة التالية في (السمسكارا) وهو يتم عادة عندما يكون الطفل بين سن ٨ - ٢ . ولب الاحتفال هو أن يرتدى المرشح زيئ الناسك ويمسك في يده صولجاناً على خيط مقدس

يوضع على كتفه اليسرى ويتدلى من ذراعه الأيمن ثم يتلو الكاهن
الرسمى من (جيترى - منترا - Gayatri - Mentra) وهى أبيات من
(الريج - فيدا) يتلوها الهندوس - وهم الطبقة العليا فى المجتمع - فى
جميع طقوسهم :

« فلنفكر فى روعة وجلال

الاله سافترى

حتى يلهم عقولنا »

وعلى العضو المرشح ، فى هذه الحالة ، أن يستجدى الصدقات ،
وأن يضع نفسه تحت وصاية براهمى متفقه فى الدين ليصبح معلمه
الروحى (Guru) ليعلمه ويهذه بالكتب المقدسة لاسيما الفيذا ،
وعلى التلميذ أن يظهر لمعلمه أقصى درجات الاحترام والخشوع ، بل
أعظم مما يظهره لوالديه ، لأنه إذا كان الأب والأم يمنحان الحياة ،
فإن المعلم من خلال معرفته الدينية يهب الخلود (٢٣).

وعلى الطالب أن يظل أعزباً تماماً ، وأن يحترس باستمرار من
السقوط فى الدنس ، أى فى تدنيس الطقوس ، وأن يخضع نفسه
لكل أوامر المعلم أثناء متابعتة المقرر الدراسى الذى قد يستغرق عند
البرهمى اثنتى عشرة سنة أو أكثر ، وعلامة انتهائه ، إلا الاغتسال
طبقاً للشعائر .

الكتابة :

ظهرت الكتابة فى شبه القارة الهندية فى وقت مبكر ، ففى
الألف الثالثة ق . م تطورت الكتابة الهندية القديمة فى المدن الكبرى
مثل موهينو وهارابا الخ فى وادى نهر الهند (٢٤).

وقد كانت هذه الكتابة تتألف من ٢٥٠ إشارة مختلفة تكتب بها النصوص المختلفة على الحجر والخزف وألواح النحاس ، إلا أن العلماء لم يتمكنوا حتى الآن من قراءة هذه النصوص . وفي الواقع أن أقدم هذه النصوص بهذه الكتابة ترجع إلى النصف الثاني للألف الثالثة ق . م ، واستمرت هذه الكتابة عدة قرون . وكما برزت هذه الكتابة الغامضة بشكل مفاجئ ، فقد اختفت بشكل مفاجئ دون أن تترك أى أثر على الكتابات اللاحقة فى الهند .

أما أقدم الآثار التى وصلتنا بالحروف الهندية المعروفة ، فترجع إلى الألف الثالثة ق . م ، وهى المراسيم المشهورة التى أمر الملك آشوى (٢٧٢ - ٢٣٦ ق . م) بنقشها على الحجر . ومع هذا فمن المعروف أن هذه الحروف قد استخدمت فى وقت أقدم ، وربما فى القرن ٨ ق . م ، وفى الواقع لدينا فى هذه النقوش فى عهد الملك آشوى نوعان من الكتابة يشتهر الأول باسم خاروشيش والثانى باسم براهمى . ومن هذا الأخير تطورت فيما بعد أنواع أخرى من الكتابة استخدمت لاحقاً فى عدة ولايات هندية (٢٥).

ومن المثير أن الكلمة المكتوبة فى الهند لم تكن تتمتع بذلك القدر من الاعتبار سواء حين كان يستعمل هذان النوعان من الكتابة ، أو حتى حين ظهرت لاحقاً أنواع أخرى من الكتابة فبالمقارنة مع كثير من حضارات العالم القديم ، فى أوروبا وآسيا وأفريقيا الشمالية ، نجد أن الطريقة الرئيسية لانتقال النصوص الدينية والأدبية والعلمية من جيل إلى آخر هى المشافهة . وهكذا عن طريق المشافهة انتقلت إلينا الملاحم البطولية الضخمة مهابهاراتا وراماياتا والفيديات والأعمال الأخرى المشهورة للأدب والفلسفة الهندية

القديمة ، ثم المؤلفات التاريخية والبيوغرافية والكتب المقدسة لكثير من الديانات الهندية .. وهكذا فإن الخط البوذى تربيتاكا قد دون لأول مرة فى نهاية العصر القديم فى سرى لانكا ، بينما دون الخط المقدس الآخر للطائفة الجايتية المعروف باسم سيد ذاتا فى القرن الخامس الميلادى فقط ، على أن هذه الطائفة كانت قد برزت قبل أكثر من ألف سنة . ويدل أن السبب الرئيسى فى عدم الاهتمام بتدوين النصوص المقدسة وغيرها يكمن فى تركيب المجتمع الهندى ، حيث أن الطبقة الفوقية (البراهمنا) كانت تعتبر أن من حقها فقط أن تعرف النصوص المقدسة وأن تتعرف على الانجازات العلمية والفنية الخ ولم يتغير الأمر إلا مع ظهور البوذية فى القرن السادس ق م التى صاحبته فكرة الديمقراطية المتواضعة ، أى نشر المعرفة التى تهدف إلى تخليد الدين فى وسط الشعب (٢٦).

الفرقة البوذية

شهد عام ٥٦٣ ق . م مولد جوتاما بوذا (Gotama Buddha) الذى تركت حياته وشخصيتها انطباعاً أكثر بقاء على العالم الشرقى أكثر من أى شخص آخر قبله ، ظهر كأحد كبار المجددين للفكر الذى ظلت تخطط بحياته الأسطورية والشعر (٢٧).

كانت وسيلة بوذا فى نشر تعاليمه - شأنه فى ذلك شأن سائر المعلمين فى عصره - هى المحاورة والمحاورة وضرب المثل ، ولما لم يدر بخلده قط - كما لم يدر بخلد سقراط أو المسيح - أن يدون مذهبه - فقد لخصه فى عبارات مركزة ، أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة ، وهذه المحادثات على الصورة التى احتفظ لنا بها الرواة

من أتباعه - تصور تصويراً لاشعورياً أول شخصية واضحة الحدود والمعالم فى التاريخ الهندى (٢٨)، رجل قوى الإرادة صادق الرواية ، مزهو بنفسه ، وديع المعاملة ، رقيق الكلام ، محسن احسانا لايتهى عند حد معلوم .

ووصف بوذا بأنه كان يزور من غلظة المعاملة ازواراً ، ويمتلىء قلبه بالرحمة ، فهو رحيم شفق بكل كائن تدب فيه الحياة ، وترفع عن النسيمة ، كان يود أن يرد الحسنة ، والكراهية بالحب ، وإذا أسىء إليه فى النقاش أو أسىء التفاهم بينه وبين من يحاوره ، أثر الصمت ، « إذا أساء الى إنسان عن حقد ، فسأرد عليه بوقاية من حبى اياه حباً مخلصاً ، وكلما زادنى شراً ، زدت خيراً » ، فإذا جاء غر وأهانته ، استمع إليه بوذا وهو صامت ، حتى إذا ما فرغ الرجل من حديثه ، سأله بوذا « اذا رفض إنسان أن يقبل منحة تقدم إليه ، فمن يكون صاحبها ؟ » فيجيبه الرجل : « إن صاحبها عندئذ هو من قدمها » فيقول بوذا له : « إني أرفض يابنى قبول إهانتك ، وأتمس منك أن تحفظها لنفسك » (٢٩) .

تبدأ موعظة « بوذا » بعرض للإفراطيين اللذين يجب تجنبهما : فالإفراط الأول الواضح هو الإفراط فى المتعة الجسدية ، ولاشئ يدفع بالمجلة إلى الوراء أكثر من الانغماس فيها ، لأن الاستمتاع لايزيد من سخطنا على كل شئ آخر فحسب ، بل يمتد السخط عليه ذاته ، فنحن فى مواجهتنا لهذا الفراغ نحتاج إلى مزيد من النوع نفسه ملئه ، حتى يدفعنا هذا إلى الاشتراك فى عملية مماثلة لاستعارة أنفسنا وفاء لدين . وأما الأفراط الثانى الذى ينبغى تجنبه فهو الإفراط فى إذلال النفس (Mortification) وطبقا للبوذا ، فإن هذا الإفراط لم

يكن أكثر فائدة من الأول ، إذ أنه لاينجم عنه فحسب زيادة اضطراب بل يؤدي أيضاً من الناحية المنطقية إلى الفناء قبل اكتساب أية ميزة حقيقية (٣٠).

كانت طريقته في التعليم فريدة ، لايمثلها نظير ، ولو أنها مدينة بشيء « للجوالين » أو السوفسطائيين المتقلبين الذين عاصروه في بلده فكان ينتقل من بلد إلى بلد ، وفي صحبته تلاميذه المقربون ، وفي آثره ما يقرب من ألفى ومائتين من أتباعه المخلصين . ولم يكن يهتم أبداً لغده ، فكان يكتفى بالزاد يقدمه له أحد المعجبين من سكان البلد الذي يحل فيه ، ولقد وصمه ذات يوم أتباعه بالعار لأنه أكل في منزل امرأة فاجرة . كانت طريقته دائماً ، أن يقف السير عند مدخل قرية من القرى ، ويضرب خيامه في حديقة أو غابة أو على ضفة نهر ، وكان يخصص ساعات العصر لتأملاته ، وساعات المساء للتعليم ، وكانت محادثاته تجرى في صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف في الحوار ، إذ كان يسوق تعاليمه في عبارات مقتضبة يرمي بها إلى تركيز آرائه تركيزاً يجعلها في صورة من الانجاز والترتيب بحيث تقرر في الأذهان ، وأحب عباراته التعليمية المقتضبة إلى نفسه هي الحقائق السامية الأربع ، التي بسط فيها رأيه بأن الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة ، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعاً (٣١).

١- تلك أيها الرهبان - هي الحقيقة السامية عن الألم : الولادة مؤلمة والمرض مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء ، العيبة واليأس كلها مؤلم.

٢- وتلك أيها الرهبان - هي الحقيقة السامية عن سبب الألم :

سببه الشهوة ، التى تؤدى إلى الولادة من جديد ، والشهوة التى تمارجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التى تسعى وراء اللذائذ ، تسقطها هنا وهناك شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة وشهوة العدم .

٣- وتلك - أيها الرهبان - وهى الحقيقة السامية عن وقف الألم : أن تجتث هذه الشهوة من أصولها ، فلا تبقى لها بقية فى نفوسنا ، السبيل هى الانقطاع والعزلة والخلاص وفكك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش .

٤- وتلك - أيها الرهبان - هى الحقيقة السابقة عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم .

الطريق

والوصف القديم للطريق هو أنه ذو ثلاث شعاب هى : الأخلاق ، والتأمل والحكمة ، وهى ليست ثلاثة مراحل متعاقبة يمر المرء بالواحدة منها تلو الأخرى وإنما هى شعاب أو دروب تسير عليها جميعاً فى وقت واحد ، بيد أن للأخلاق أولوية خاصة ، فبدون الجهد الجاد فى مراعاة المبادئ الأخلاقية ، لن تكون ثمة ممارسة فعالة ومؤثرة للتأمل (٣٢) .

ويعبر عن القواعد الأخلاقية الخمس الأساسية - بالنسبة للرهبان ولعامّة الناس على حد سواء - فى صيغة تستخدم بانتظام فى العبادات الدينية ، أو يمكن ترجمتها على وجه التقريب كما يلى : « أتعهد بالإحجام عن إلحاق الأذى بالكائنات الحية ، وأن لا آخذ شيئاً لم يعط لى (أى أن أمتنع عن السرقة) ، وبأن أمتنع عن الممارسات الجنسية اللا أخلاقية ، وعن الكذب وتناول الخمر والمخدرات التى تذهب العقل » .

وهناك درجة أكثر تقدماً فى النظام الأخلاقى يتبعها البعض من عامة الناس ، وتعتمد على مراعاة ثلاثة مبادئ اجتماعية هى : أن أمتنع عن تناول الطعام بعد الظهر ، وأن أمتنع عن الرقص والغناء وألعاب التسلية ، وأن أمتنع عن استخدام أكاليل الزهور أو مستحضرات التجميل ، وأن لا أترين بأى نوع من أنواع الزينة .

وهذه الإضافات إلى قاعدة الحياة لعامة الناس ، يؤخذ بها فى الغالب أيام العطلات والأيام المقدسة كتعبير عن عمق الإيمان^(٣٣) .

والجانب الرئيسى الثانى من الطريق الذى وضع بوذا معالمة هو التأمل ، فالسلوك الحق ينبغى أن يصحبه الفكر الحق أو المواقف الحق ، والفكر والعمل معا مرتبطان بالوجود الحق لأن تنمية الفكر الحق ، أو المواقف الحق (أو النصائح السديدة) - أى السليمة من الناحية الأخلاقية وهى من أول أهداف التأمل والتأثير المتبادل بين الفكر والعمل موجود فى الوصف المفصل للحياة البوذية بوصفها طريقاً ذا ثمان شعب والبنود الثمانية وعلاقتها بالتخطيط الثلاثى للأخلاق يمكن أن تعرض على النحو التالى^(٣٤) :

- | | | |
|----------------|---------|---------------------------|
| الحكمة | الإيمان | ١- الفهم الحق |
| كنهاية أو غاية | كبداية | ٢- الفكر الحق |
| | | ٣- الكلام الحق |
| الأخلاق : | | ٤- الفعل البدنى السليم |
| | | ٥- المعيشة الحق |
| | | ٦- الجهد الأخلاقى الحق |
| تأمل | | ٧- الانتباه العقلى السليم |
| | | ٨- التركيز الحق |

أما الحكمة التى يصل إليها فى النهاية من يحيا الحياة البوذية ، فإنها تتمثل فى جملة التعاليم الأساسية لبوذا وأفكاره الرئيسية.

وإذا كانت (البوذية) قد أصبحت (ديانة) ، إلا أنها كانت ديانة بغير إيمان بالله ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، بل لقد رفض بوذا الروحانية فى شتى صورها بالنسبة للإنسان . ولكن إذا كان ذلك كذلك ، فكيف يمكن أن يعود الحى إلى الحياة من جديد فى ولادة ثانية كما ذهب ؟ إذا لم يكن هناك روح فما الذى يتقمص أجساداً أخرى فى ولادات تالية ليلقى عذابه على خطاياه ؟ إن التناقض القائم بين القول (بالتناسخ) و «رفض الروحانية» واضح ، لم يحل .

وقد وضع الحكيم « باتانجالى » (patan jali) رياضة اليوجا سوتراس (Yoja sut ras) ربما بين سنتى ٣٠٠ و ١٥٠ ق.م

واليوجا ، باختصار ، تكتيك لتحرير العقل من ارتباطه بالحواس . وإذا ما تحرر العقل مرة ، فإنه لا يتجول على غير هدى فى عالم أسنى من الطبيعة ، إذ يصبح هو بالفعل ما يسعى إليه .

وعندئذ يكون بحث النفس أو (الآتمان) هو عن (البرهمان) - هذه القوة التى يصعب تحديدها ، فيما وراء إدراكنا العقلى ، لأنها لا حدود لها . وهى أيضاً أصل لأشياء البشرية والمقدسة (٣٥) . وإذا ما مر اليوجى بمراحل نظام اليوجا المتوالية ، فإنه متغير بالرغم من أنه لا يتغير فيزيائياً (أو على الأقل فى الوقت الراهن) ، يتغير تغيراً سيكولوجياً ، ومن حين لآخر ، فيقال أنه يمكن أن يتغير تغيراً فيزيائياً (٣٦) .

ما مراحل الوصول إلى (الاندماج الكامل) تلك التى تسمى بـ (Samadhi) ساماذى (٣٧) التى من المفروض أن يمر بها اليوجى ؟

هى ثمانية فى عددها ، وتشكل هذه المراحل ، الوسيلة التى يمكن التخلص بها من الخمسة التى يطلق عليها اسم (حواجز) أو (عوائق) الانفصال ، معنى بذلك الجهل (Avidya) ، نظرية الفردية أى أن الإنسان فرد مستقل بذاته ؟ الرغبة ، الكراهية ، الارتباط بالأشياء ذات الحواس وترتب المراحل كما يلى : أولاً تأتى ياما (Yama) ، ولعلها أصعب مرحلة من المراحل جميعها ، ولذا فإن كثيرين جداً من المتحمسين يصدفون عنها ، وهى تتضمن إخماد الرغبة والأثرة وأن يستبدل بها الإحسان والغيرة . وثانياً ، تأتى نياما (Niyama) وهى مرحلة يجب أن تتبع فيها قواعد سلوكية معينة مثل المداومة على النظافة ، وإتباع دراسات تعبدية والقيام بطقوس معينة للمتظاهر ، وثالثاً ، المرحلة التى توجه إليها أكثر عناية ، أى أسانا (Asana) ، أو بلوغ الوضع الصحيح ، وثمناً كما أن المرحلة الأولى تتضمن إخماد كل رغبة، كذلك المرحلة الثالثة تتضمن الإقلال إلى أقصى حد فى كل الحركات البدنية ... إلى آخر هذه المراحل .

التربية لدى الهنود

قامت فى الهند قبل الميلاد بنحو ألف سنة مجامع برهمية علمية تدعى باريشاد وهى تقرب مما نسميه الآن معاهد كلية ، وكان الباريشاد الواحد يضم ثلاثة من البراهمة ممن أُنقنوا دراسة الفيدا ، ولما تقدم الزمن ، صار الباريشاد يحوى أحد وعشرين من البراهمة المتضلعين فى الفلسفة والديانة والقانون ، فكان يذهب إلى هذه المعاهد كل من أراد أن يهب حياته للعلم بشرط أن يكون من أفراد

حلقة العلم ، وهناك كان يتعلم الفيدا بأجزائه وكل ما كان معلوماً
وتقتل من القانون والفلك والفلسفة (٢٨) .

وكان لدى الهنود مدارس حرة يديرها أفراد من (طبقة العلم) ،
ويقومون بنفقاتها من عندهم . وكان التلاميذ يذهبون إليها للتعليم
ويخدمون المعلمين بأجرة تعلمهم . ولم يتحتم على تلاميذ هذه
المدارس أن يكونوا من طبقة البراهمة .

وكان التلاميذ - عموماً - يبدأون تعلم الكتابة على الرمل حتى
إذا تقدموا بدأوا يكتبون على أوراق النخيل بقلم ذى سن حديدى ،
ثم على ورق الشجر بالحر (٢٩) .

واشتمل منهاج التعليم على الحساب والكتابة ، ولكن كان
الهدف الأساسى فى هذا التعليم المغلف بالغلاف الدينى هو زرع
الأخلاق القويمة ، ولذلك كان النظام صارماً وإن لم يلجأوا إلى وسائل
العقاب البدنى ، بل إلى الحرص الشديد على تكوين عادات السلوك
الصالح منذ الصغر .

وبعد سن الثامنة يعهد بالتلميذ غالباً إلى (شيخ) هو أحد رجال
الدين ويصبح التلميذ جلسيه يتلقى عنه (الشسترات الخمس) وهى :
النحو والفنون والصناعات والطب والمنطق والفلسفة . وكان للأستاذ
على تلميذه حقوق ، فالتلميذ تابعه وخادمه ، يؤدى له الخدمات
كلها ، ويبقى التلميذ مع أستاذه حتى العشرين من عمره ، ثم
ينطلق إلى الدنيا على أساس قاعدة مؤداها أن التعليم يأتى ربه من
المعلم ، وربه من المدرسة الخاصة ، وربه من الزملاء ، وربه من
الحياة .

وكان من حق التلميذ عندما يبلغ السادسة عشر أن يترك الأستاذ

لينتقل إلى إحدى الجامعات الكبرى ، وهذه كانت قاصرة على البراهمة ولكن سمح للطلبة التالية بدخولها ، وفيها يتعلم الطلبة العلوم والفلسفة والقانون والرياضيات والطب والشعر إلى جانب التعاليم والنصوص الدينية . ونظراً لأن الهنود كانوا يربون ويعلمون لا من أجل الأمور العملية ولكن للمثاليات فقد تشبعت ثقافتهم بالفلسفة والدين ، ومست العلم والفن والتجارة مسا خفيفاً (٤٠).

وكان الطلاب الذين يساعدهم الحظ في الدخول إلى إحدى الجامعات يتعلمون مجاناً في ذلك أيضاً المسكن والغذاء ، لكنهم لقاء ذلك كانوا يخضعون لنظام أوشك أن يكون كنظام الأديرة ، ولم يكن الطالب يسمح له بالتحدث إلى امرأة ، أو برؤية امرأة ، بل إن مجرد الرغبة في النظر إلى امرأة ، كان يعد عندهم خطيئة كبرى ، وإذا اقترف الطالب اثماً جنسياً ، كان عليه أن يلبس جلد حمار مدة عام كامل ، وأن يجوب الأثم الطرقات ، يطلب الصدقات ، ويعلن عن خطيئته . وكان الطلبة جميعاً مطالبون كل صباح بالاستحمام في أحواض السباحة العشرة الكبرى التابعة للجامعة ، ومدة الدراسة اثنا عشر عاماً مولو أن بعض الطلبة كان يقيم بالجامعة ثلاثين عاماً ، وبعضهم يقيم بها حتى الممات (٤١).

ولما كانت المرأة في الهند غير كفاء لتلهيب أبنائها ، تعلم أولئك الأبناء في الغالب فيما يسمونه المجمع القروي ، وكان لهذه المجمع شأن كبير في نظام الهند ، فهي التي كانت تعلم الأهالي مبادئ الدين وفصلت لهم في قضاياهم ومنازعاتهم وعلمتهم كثيراً من قصص أجدادهم وسردت عليهم حكايات خرافية ونوادير أو أمثالا عديدة تحوى كثيراً من أخلاق الهنود وآدابهم وتظهر درجة رقى

الفكر الهندى ، ومنها مجموعة النصائح التى وضعها الفيلسوف البرهمى (ميديا) للملك الهندى (دبشليم) فى القرن الرابع قبل الميلاد وجعلها على ألسن البهائم والطير . ولقد ظهرت هذه المجموعة مكتوبة بالهندية فى القرن الخامس بعد الميلاد ، وفى القرن السادس أرسل كسر انوشروان ملك الفرس (برزويه) رأس أطباء فارس إلى الهند ليحصل على ذلك الكتاب ، فاستنسخه من خزانة الملك وعاد به إلى بلاد فارس ، وهناك ترجم إلى الفارسية ، ولقد ترجمه من الفارسية إلى العربية عبد الله بن المقفع فى زمن المنصور الخليفة العباسى وسماه كلية ودمنة ، ومن العربية ترجم إلى اليونانية والتركية والعبرية والاسبانية والايطالية والفرنسية والانجليزية والألمانية^(٢٢) ، وهذا الكتاب مجموعة حكم عالية تنبئ بفلسفة راقية ، نذكر منها :

- من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

- إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء أما الثلاثة التى تطلب : فالسعة فى الرزق ، والمنزلة فى الناس والزاد للآخرة . وأما الأربعة التى يحتاج إليها فى ذلك هذه الثلاثة فإكتساب المال من أحسن وجه يكون ، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ثم استثماره ، ثم اتفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضى الأهل والأخوان فيعود عليه نفعه فى الآخرة .

- رب صغير ضعيف قد بلغ يحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عنه

كثير من الأقوياء^(٢٣) .

- إن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد ، والانحطاط منها هين

، كالحجر الثقيل ، رفعه من الأرض إلى أعلى عسير ، ووضعه على الأرض هين .

ويظهر أن الدولة تدخلت فى التعليم العالى ، فيحدثنا المؤرخون أن جامعة (لاندن) ، وهى أشهر الجامعات بالمعاهد البوذية العالية انشئت بعد موت بوذا بزمان قصير ، وخصصت لها الدولة دخل مائة قرية ليصرف منها على شئون الجامعة . ويقال أنه كان يؤمها عشرة آلاف طالب. وتحوى مائة قاعة للمحاضرات إلى جانب المكتبات الكثيرة الضخمة ، مساكن للطلبة ولها مراصد عالية تبلغ السحاب ارتفاعاً ، وكان المستوى العلمى فيها عالياً جداً ، لدرجة أن الأجانب فى البلاد المجاورة ومن ذوى العلم كانوا لا يستطيعون مجازاة الطلبة فى اطلاعهم ومناقشتهم ، فيعترفون لهم بالذكاء والغزارة الدراسية ، حتى أن أحد علماء الصين ممن زاروا هذه الجامعة أعجب بها ، ومكث بها خمس سنوات يناقش الطلبة ويجادلهم ويستمع إلى الأساتذة الجهابذة ، ويدلل على صعوبة الدراسة بها أن عدد الذين كانوا يرسبون فى الامتحانات أكثر من عدد الناجحين بالضعف (٤٤) .

ولما كان الدين هو لب الحياة الهندية ، وصميمها ، فإن العلوم التى كان شأنها أن تعاون الدين هى التى سبقت غيرها بالرعاية والنمو : فالفلك قد نشأ عن عبادة الأجرام السماوية ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرايين ، ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية صحيحة فى تركيبها ، وفى مخارج أصواتها على الرغم من أنها تقال أو تكتب بلغة ميتة ، فقد كان علماء الهند ، كما كانت الحال فى معظم العصور الوسطى هم كهنتها ، بكل ما فى ذلك من خير ومن شر (٤٥) .

ومن المعروف أن ما يسمى خطأ بالأعداد (العربية) إنما هى

هندية ، فالهنود هم الذين ورثوا العرب الأعداد برموز عشرة مما كان له أثره فى تطور ورقى علم الحساب .

وقد تختم على كل من أراد أن يكون معلماً أن يدرس جميع مواد المنهج المعترف به ، وأن يكون قد قام بجميع واجبات الطالب البرهمى ، وعليه ألا يعلم إلا الأطفال الذين تسمح بتعليمهم عادات البلاد .

وكانت طريقة التدريس شفوية ، فشحناوا ذاكرة الطفل بالمحفوظات لدرجة لا يكاد يتصورها أوربي (٤٦) .

بدأ الطفل الهندى الاستظهار من صغره ، فحفظ الحروف الأبجدية وكذلك استظهر نحو عشرين صفحة من اللغة السنسكريتية دون أن يفهم كلمة منها ، ومن الحفظ جاء الشرح ، وكان الغرض من ذلك أن يستظهر التلميذ الكتب المقدسة بدون تحريف فيها ، ولكنه لا يستظهرها من كتاب بل من فم معلم ، فكان المعلم يجلس فى جهة مناسبة ، وإن كان له تلميذ واحد أجلسه على يمينه ، وأما إذا زاد عدد التلاميذ ، فلهم أن يجلسوا حيث أرادوا ، وعند بدء كل درس ، يقبل التلاميذ قدمى المعلم ثم يجلسون فيبدأ المعلم الدرس بأن ينطق كلمة واحدة أو كلمتين قصيرتين فيردها التلميذ المجاور له ، ومنه إلى تاليه ، وهكذا ، ثم ينطق المعلم كلمتين أخريين فيردها التلاميذ بالترتيب ، ويستمر الدرس على هذا المتوال حتى يحفظ التلاميذ سطرين أو ثلاثة سطور شفويا ، ثم يأخذ التلاميذ فى تلاوة تلك السطور بصوت جهورى حتى ترسخ فى أذهانهم ولا ينسوها ، وبعد نهاية الدرس ، يقبل التلاميذ قدمى المعلم ثم ينصرفون (٤٧) .

ولما وجد الخط لديهم كان يعطى كل تلميذ نسخة مكتوبة باليد

، ثم يطالعونها بصوت جهورى حتى يستظهروها دون أن يتعبوا أنفسهم فى فهم معناها .

وكان النظام فى مثل هذه المدارس لينا مشفوعا بالشفقة إلا فى أحوال استثنائية استعمل فيها شيء من القسوة ، فقد قال (مانو) فى قوانينه : « يجب أن يتعلم الأطفال دون أن يشعروا بأى شيء يؤلمهم أو ينفرهم من التعلم ، والمعلم الذى يعرف للفضيلة معنى ، يجب عليه أن يستعمل اللطف والكلام العذب عند التدريس . فاذا ما أذنب تلميذ ، فللمعلم أن يعاقبه بالكلام القارس ويهدده بالضرب أن هو عاد إلى ارتكاب أى ذنب ، واذا ما جنى التلميذ جناية وقت الشتاء ، فللمعلم أن يعاقبه بصب الماء البارد فوق رأسه (٤٨) .

وكانت مدارس الأطفال فى ذلك الزمن عبارة عن مجتمعات فى الهواء الطلق تحت ظل الأشجار صيفاً وتحت مظلات أو حواجز فى الشتاء أو وقت المطر وتعلم التلاميذ من الحساب المبادئ الأولية جداً . وكانوا يكتبون فى الرمل بعضى فى أول تعلمهم الكتابة ، ثم ارتقوا فصاروا يكتبون على سعف النخل بقطع من الحديد تشبه المسامير ، وبعد ذلك كتبوا بالحبر على أوراق أشجار مخصوصة ، وهذا الرقى فى الكتابة لم يصلوا إليه إلا قبل الإسلام بزمن يسير (٤٩) : ... وكان من عادتهم المدرسية أن يعلم التلميذ المتقدم تلميذاً مبتدئاً ، وكان التلاميذ يختبرون بعضهم فى استظهار القطع ، ولذلك يمكننا أن نسميها طريقة التبادل فى التعليم .

هوامش الفصل الثالث

- ١- محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ص ٩٠ .
- ٢- المرجع السابق ، ص ٩١ .
- ٣- المرجع السابق ، ص ٩١ .
- ٤- ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، م ١ ، ج ٣ (الهند وجيرانها) ، ١٩٦٨ ، ص ص ١٥٢ ، ١٥٣ .
- ٥- المرجع السابق ، ص ١٥٨ .
- ٦- المرجع السابق ، ص ١٦٤ .
- ٧- المرجع السابق ، ص ١٦٦ .
- ٨- المرجع السابق ، ص ١٧١ .
- ٩- المرجع السابق ، ص ٢٧ .
- ١٠- أ. د. ف. توملين : فلاسفة الشرق . ترجمة عبد الحميد سليم ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٩ .
- ١١- محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، ص ٩٢ .
- ١٢- المرجع السابق ، ص ٩٣ .
- ١٣- فلاسفة الشرق ، ١٧٣ .
- ١٤- المرجع السابق ، ص ١٧٥ .
- ١٥- المرجع السابق ، .
- ١٦- المرجع السابق ، ص ١٧٧ .
- ١٧- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٣ ، ص ٤٣ .

- ١٨- المرجع السابق نفس الصفحة .
- ١٩- المرجع السابق ، ص ٤٥ .
- ٢٠- المرجع السابق ، ص ٤٦ .
- ٢١- فلاسفة الشرق ، ص ١٨٥ .
- ٢٢- جفرى باوندر (محرر) المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة
إمام عبد الفتاح إمام ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة
والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة (١٧٣) مايو ١٩٩٣ ص
١٤٤ .
- ٢٣- المرجع السابق ، ص ١٤٥ .
- ٢٤- تاريخ الكتاب ، القسم الأول ، ص ٥٥ .
- ٢٥- المرجع السابق نفس الصفحة .
- ٢٦- المرجع السابق ، ص ٥٦ .
- ٢٧- توملين : فلاسفة الشرق .
- ٢٨- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٣ ، ص ٧٤ .
- ٢٩- المرجع السابق .
- ٣٠- فلاسفة الشرق ، ص ٢٢٦ .
- ٣١- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٣ ، ص ٧٥ .
- ٣٢- المعتقدات الدينية ، ص ٢٢٥ .
- ٣٣- المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .
- ٣٤- المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .
- ٣٥- فلاسفة الشرق ، ص ١٧٦ .
- ٣٦- المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .
- ٣٧- المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

- ٣٨- أحمد فهمى قطان ، ص ٩٥ .
- ٣٩- سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ، ص ٨٢ .
- ٤٠- المرجع السابق ، ص ٨٣ .
- ٤١- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .
- ٤٢- أحمد فهمى قطان ، ص ٩٨ .
- ٤٣- المرجع السابق ، ص ٩٩ .
- ٤٤- سعد مرسى أحمد ص ٨٣ .
- ٤٥- قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ .
- ٤٦- أحمد فهمى قطان ص ١٠٢ .
- ٤٧- المرجع السابق ، ص ١٠٣ .
- ٤٨- المرجع السابق نفس الصفحة .
- ٤٩- المرجع السابق ، ص ١٠٤ .



الفصل الرابع التربية الصينية

الإطار الحضارى :

تعتبر الحضارة الصينية واحدة من أقدم الحضارات وأغناها، فمن وراثتها تقاليد قديمة فى الشعر يرجع تاريخها إلى عام ١٧٠٠ ق.م ، وسجل حافل بالفلسفة الواقعية المثالية، وبراعة فى صناعة الخزف والنقش لامتيل لها من نوعها، واتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لا يضارعاها فيه إلا اليابانيون، وأخلاق قوية قيمة قوية لم نر لها نظيرا عند كثير من شعوب العالم فى أى وقت من الأوقات، ونظام اجتماعى ضم عددا من الخلائق أكثر مما ضمه أى نظام آخر عرف فى التاريخ، ودام أحقابا لم يدمها غيره من النظم (١) .

وليس فى الناس من يعرف من أين جاء الصينيون، أو إلى أى جنس ينتسبون، أو متى بدأت حضارتهم فى الزمن القديم، وتدل كشوف أندرسن Anderson وغيره فى «هونان» و «منشوريا الجنوبية» على أن ثقافة تنتسب إلى العصر الحجري الحديث وجدت فى تلك البلاد متأخرة بألفى عام عن مثيلتها فى عصر ما قبل التاريخ فى مصر وسومر. ويشبه بعض ما وجد من الأدوات فى الرواسب الباقية من العصر الحجري الحديث، فى شكله وتمنيه المدى الحديدية التى يستخدمها سكان الصين الشمالية لحصاد الذرة الصينية فى أوائل القرن العشرين، وهذه الحقيقة على ضآلة شأنها ترجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف سنة متواصلة غير منقطعة (٢) .

وفى فترة سميت بالدولة الوسطى الزاهرة فى تاريخ الصين القديم،

سرت فى الحياة الذهنية بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة فى البلاد حيوية تنقض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ الناس بها، فقد وضعت فى هذا العهد المضطرب قواعد اللغة الصينية والأدب والفلسفة، والفن، ونشأ من ائتلاف الحياة التى أصبحت آمنة بفضل التنظيم الاقتصادى والادخار مع الثقافة التى لم تكن قد وجدت بعد أو قيدت بالقيود والأحكام التى تفرضها عليها التقاليد والحكومة الامبراطورية القوية السلطان، نشأ من ائتلافها ذلك الإطار الاجتماعى الذى احتوى أكثر العهود ابداعا وانشاء فى تاريخ الصين الذهبى، فكان فى كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء، وفى آلاف المدن والقرى، شعراء ينشدون القصائد، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة، وكتبة ينمقون على مهل حروف الكتابة الصينية وسوفسطائيون يعلمون الطلبة المجدين أساليب الجدل والمحااجة الذهنية، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لنقائص البشر وتدهور الدول (٣) .

وقد شهد القرنان السادس والخامس فى بلاد الصين، كما شهدا فى بلاد الهند وفارس، وبلاد اليهود واليونان، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية والأدبية، بدأت كما بدأت فى بلاد اليونان بعصر من «الاستنارة العقلية».

ولقد سبق هذه الاستنارة عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الانساب العريقة مسلكا للرقى، وحفز أهل المدن إلى أن يطلبوا لأنفسهم معلمين يشقون أذهانهم بالفنون العقلية، وسرعان ما كشف معلموا الشعب ما فى علوم الدين من إيهام وغموض، وما فى الأداة الحكومية من نقص، وعرفوا أن المقاييس

الأخلاقية مقاييس نسبية، وشرعوا يبحثون عن المثل العليا والكمال المطلق. وقد أعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاية الأمور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاججتهم. وتقول إحدى الروايات أن كونفوشيوس نفسه، وهو وزير الجريمة في مقاطعة «لو»، حكم بالاعدام على موظف صيني متمرد بحجة أنه «كان في وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال، وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإكبار والإجلال، وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة ما يمكنها من الوقوف في وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس» (٤)، وإن كان البعض يشكك في هذه الرواية.

وكان للصينيين عدة أديان أشهرها ثلاثة :

١- الكونفوشية: وسميت بذلك نسبة إلى كونفوشيوس، الشارع المصلح الصيني الشهير الذي ولد سنة ٥٤١ ومات سنة ٤٧٨ ق.م، وله تعاليم فلسفية هامة أساسها الفضائل الطبيعية التي تؤيدها البراهين الحسية، فأمن بتعليمه خلق كثير بعد أن كانوا وثنيين وأصبحوا يعبدونه هو كإله، ويقدمون الذبائح من أجله.

٢- البوذية: نسبة إلى بوذا مؤسسها وهي ديانة هندية في الأصل، كما رأينا، ودخلت الصين سنة ٧٦هـ، واعتنقها ملايين عديدة من الصينيين.

٣- الطاوية: أسسها الفيلسوف الصيني «لاو تزي» وكان معاصرا لكونفوشيوس، ولكن تعاليمه لم تأخذ شكل الديانة إلا في أواسط القرن الثاني للميلاد، ولكنها انحطت حتى صارت ديانه أرواح، وشياطين وتعاوى (٥). وادعى كهنة الطاوية أن في وسعهم تحضير أرواح الموتى

ومخاطبتها.

وعبد الصينى آلهة الرحمة فى كل المعابد ومسجد لكثير من الأصنام مؤملا أنه بعمله هذا وباجتهاده فى الدنيا يضمن لروحه انتقالا سعيدا بعد الوفاة. أما الصينى الكونفوشى فيعتقد أن ظواهر الطبيعة من زلازل وبراكين وعواطف وكذلك الأمراض المعدية كلها دلائل على سوء نظام أعمال الحكومة، كذلك بجّل الصينى أجداده لدرجة أن بعضهم عبدها.

أما احترامهم للأسرة وعيشتها فيفوق كل وصف، فلوالد سلطة غير محدودة على أبنائه. ومن واجبات الأطفال الطاعة العمياء للوالدين، فالأسرة فى الحقيقة مركز حياة الأمة فى الوجوه الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، فعنها تنمو الفضائل ونظامها نموذج لنظام الحكومة، وما الحكومة إلا أسرة كبيرة ويعتقدون أن الزواج عمل مقدس وواجب اجتماعى على كل فرد، وكانوا يسيحون الخليلات، إلا أن أولادهم حرموا من الامتيازات التى تمتع بها أبناء الزوجات الشرعيات، وكانت علاقة المرأة بزوجها علاقة أمة بسيدها، وأظهر الصينيون احتقارهم للمرأة حتى عند الولادة، فإذا ما كان المولود ذكرا، علقوا قوسا وسهما على باب المنزل وكسا الطفل أفخر الثياب، وإذا ما كانت أنثى علقوا المغزل على الباب ولقوها فى أى قطعة من الخرق البالية، وإذا سئل والد عن عدد أولاده لم يذكر إلا عدد الذكور منهم فقط (٦).

الفلسفة الصينية :

من أقدم الأفكار الميتافيزيقية الصينية ، فكرة الـ (Yin) و (Yang) ومعنى «ين» الحرفى ، هو «الظل» ، ويعبر عنه بالكتابة

التصويرية بالجانب الشمالى لجبل والجانب الجنوبي لنهر، لأنه فى الصباح تكتنف الظلمة جنوب النهر، أما «يانج» فمن ناحية أخرى يعنى «الضوء» ويعبر عنه بصورة مغايرة، و «يانج» ايجابى و «ين» سلبى، الأول ذكر والثانى أنثى، ولكن «ين» و «يانج» لايشكلان مذهب الثنائية Dualism الذى يقسم العالم إلى قسمين، هذه المبادئ من خصائص عالم الظواهر فقط^(٧) . وعن طريق هذين المنصرين تتم عملية الخلق.

ولقد ورد أول بيان لفكرتى «ين» و «يانج» على ماذكر فى كتاب غامض عنوانه بقدرغموض محتواه: اسمه «آى - تشنج» I. Ching أو كتاب «المتغيرات» Book of changes ، وأن من يعلنون أن العقلية الصينية عاجزة عن التأمل الميتافيزيقى ليتجاهلون مقدار مايمتتع به هذا الكتاب من مقام رفيع !!

أما أصل كل معنى فى الكون ، فهو «التاو» Tao أى «الطريق»، وكان أول فيلسوف تجاوب مع دقة مبدأ «التاو» هو لاو - تزي Lao-Tze الذى له شهرته كمؤلف كتاب تاو - تى - تشنج Tao-Te- Ching الذى يعنى كتاب دستور الطريق أو الفضيلة The Book of the Way and of virtue

ولد «لاو - تزي» سنة ٦٠٤ ق.م، فى محافظة «هونان» Honan فى الصين الوسطى وتوفى سنة ٥١٧ ق.م.^(٨)

ولربما كانت فلسفة (تاو - تى - تشنج) واحدة من أكثر الفلسفات ثورية فى صياغتها، وإذا فسرنا تفسيراً حرفياً، أو فسرنا حرفياً بالمعنى الذى نستطيع أن نفهمه، لمثلث هجوم على كل شئ، اتجه إلى تشكل مايدعى حضارة، وينصحنا «لاو - تزي» بالألا تدخل

فى أمر من الأمور وهو يطالب الحكومات بصورة خاصة بألا تتدخل فى أمر من الأمور، وباختصار لا يرى شيئا سوى الشر فى كل فكرة الحكومات، وعلى غير شاكلة جملة الفلاسفة الآخرين هو لا يمجّد المعرفة ولا يصفها بالفضيلة كما فعل سقراط بعد ذلك بزمان يسير، بل هو على العكس من ذلك يمجّد الجهل الذى يصفه بصورة قاطعة بالشقاوة، ومرة أخرى يرفض الحكيم الحق أن يجادل، واتباعه «التاو» يضرب مثلا للبساطة والرضا، إذ باعتباره مثل معد، له تأثير مهدىء على مواطنيه، و«الحكيم» كما يقول «لاو - تزي» يباشر مهمته بدون مجهود، ويقدم تعليماته بدون كلمات، ان كافة الوصفات السوية لخلق مجتمع عادل، يفض هذا الفيلسوف النظر عنها باعتبار أنها لاجدوى من ورائها، بل خطرة ويجب أن تمتنع عن ذلك، لأنه ليس أخطر من تلقين الاستقامة ذاتها، مادام أن كل المحاولات فى بث الخير من خلال التشريع سينتج عكس ما هو مقصود، «لو تخلصت من العلم، كما عرفت الحزن، تخلص من الحكماء ولا تتقبل الحكمة. وسيستفيد الناس مائة مرة، لا تركز إلى الإحسان وانبد الاستقامة وسيعود الناس إلى واجبه الأخوى وإلى الحب الأبوى»^(٩). تخلص من الحيل وانبد المكاسب يختفى السالبون واللصوص، كن حريصا وتمسك بالبساطة، هذا هو جوهر رسالته.

أما أشهر زعيم فكرى صينى على وجه الإطلاق فهو «كونج - تزي» Kung - Fu - Tze وهذا هو الاسم الأصلى - وهى تعنى حرفيا «كونج» ، المعلم ، ثم عرف باسم «كونفوشيوس» ، وقد ولد عام ٥٥١ ق.م فى مملكة لولL1 شانتونج الحالية Shantung. (١٠).

وإذا كان كونفوشيوس لم يظهر أى ميل شخصى للتفكير

الصوفي، فلقد كان على علم بالسحر الذى كان يؤثر به مثل هذا التفكير فى جمهرة البشر وهو لم ينكر وجود عالم روحى أسمى. بل هو بالأحرى، أعطى الأولوية لاعتبارات الحكومة الإنسانية والرفاهية والسعادة، ولقد اتبع فى تأملاته الخاصة، مثلما اتبع فى تعاليمه، منهج البحث العقلى والمنطقى، أما عن تطوير حالات «السبات» طبقا لمبادئ «اليوجا» ، فقد رفض أن يطبقه بنفسه، بعد بضع تجارب مبكرة: « لقد قضيت يوما كاملا بلا طعام والليل بطوله بدون نوم لكى أتأمل، ولكن بدون جدوى، من الأفضل التعلم، ومرات ومرات. عندما كان يسأل عن أمور فيما وراء الخبرة المباشرة البشرية، كان «كونفوشيوس» يجيب بكلمات أكثر وضوحا من البوذا نفسه، وإن كانت له دوافع مختلفة جدا، وعندما سأله تلميذه «تزو - لو» Tzu Lu أن يتحدث عن واجب الإنسان إزاء أرواح الراحلين، أجاب: «إذا كنت لاتزال عاجزا عن أداء واجبك إزاء الأحياء، فكيف تستطيع أن تؤدى واجبك إزاء الأموات؟ وفى مناسبة أخرى، عندما سئل عن طبيعة الموت ذاته، أجاب فى شيء من الاستخفاف: «إذا كنت لاتفهم الحياة، فكيف يمكن أن تزعم أنك تفهم الموت؟» وكثيرا ما كان يتعرض تلاميذه لانتقادات بل سخریات النساك الذين كانوا يحيون الحياة البساطة وحياة العزلة، لأنه حتى ذلك الوقت كان ينظر إلى الشخص الحكيم على أنه الشخص الذى من الأفضل أن يركز أفكاره ويتخلى عن كل اتصال بالعالم. وقد كان لكونفوشيوس بالنسبة لهذه السخریات، دائما، رد مؤثر جدا: «أنتى لآستطيع أن أسير مع أسراب الطيور وقطعان الحيوانات، وإذا لم أنضم إلى البشر فىلى من يمكن أن أنضم؟ وإذا لم يكن للحكيم الصائب أن يسود العالم، فلا ينبغى لى أن أشارك فى إصلاحه» (١١) .

والكونفوشيوسية تجمع بشكل مبدع بين الآداب السياسية والاجتماعية وبين الأخلاق الخاصة، وهى فى حد ذاتها نظام فلسفى أكثر من أن تكون نظاما دينيا أو نظاما للعبادة، وهى فى تعاليمها تستمد قوتها من «البوذية»، و «التاوية». وتتلخص التعاليم الأخلاقية والواجبات الاجتماعية فيما يطلق عليه «العلاقات الخمس» التى يتعلمها كل طفل كمبادئ للسلوك، وهذه هى علاقة الحاكم بالمحكوم أو بالرعية، وعلاقة الأب بانه، وعلاقة الزوج بزوجته، والأخ بأخيه، والصديق بصديقه، وكما أن هناك خمس حواس وخمسة عناصر، وخمسة كواكب، وخمسة أجناس، وخمسة ألوان، وخمسة نغمات موسيقية، وخمسة أذواق، وخمسة وجهات للبوصلة، فهناك أيضا خمس فضائل هى: «الإحسان، والعدالة، والنظام، والحزم، والأخلاص» (١٢).

وربما نحتاج بعض العلاقات الخمس إلى شىء من التوضيح:

فقد استخدم كونفوشيوس حكمة Ten فى حديثه عن علاقة الأمير بالرعية ويعنى بها أن تكون خيرا إلى أقصى حد، وبأوسع معنى ممكن للكلمة، ومن ثم كانت صفات مثل «انعدام الأنانية» واحترام الآخرين و الأدب والولاء للأسرة والإخلاص للأمير كلها صفات الرجل «الجين» فالرجل المهذب الخير «الجين» لا يتذمر ولا يشكو وقت المحن، وهو جريء واضح فى مسألة الحق، لكن هذه كلها مجرد جوانب «للجين» فعند كونفوشيوس أن «الجين» نفسه هو نموذج متعال لم يبلغه سوى حكماء الماضى أنه كيان صوفى وهو الصفة الجوهرية للقداسة (١٣).

وإذا كانت «الجين» هى صفة القداسة، فإن تى Te هى القوة التى

تبلغ بها هذه القداسة، أما الفضيلة فليست مضادة للزيلة، وإنما هي بالأحرى، فضيلة باطنية ملازمة- هي قوة شيء ما أو فاعليته، وهي بهذا المفهوم أقرب إلى المعنى الذى يقصده كونفوشيوس، وهكذا يكون على الأمراء أن يحكموا عن طريق الفضيلة التى هي مركز رفيع تجاوز قوته كثيرا القوة البدنية أو القهر، والشخص الخير يمارس الفضيلة فيتحول الآخرون إلى الخير، والإنسان الذى يسعى لأن يكون «جين» بتهديب قوته Te يبلغ المثل الأعلى للأمر، وهذا المثل الأعلى الأميرى، هو «تشن - تزو» Chün-Tzu «حرفيا: الأمير، يصبح فى تعاليم كونفوشيوس تجسيدا للمثل، العليا للسلوك البشرى، أنه الإنسان فى أحسن أحواله، الإنسان كما ينبغي أن يكون، وهذا الإنسان الأعلى «تشن - تزو» تحكم «لى - Li» الشعائر - سلوكه كله، وكلمة Li تعنى طقوس الديانة المبكرة، أصبحت عند كونفوشيوس شريعة كاملة للسلوك المهدب، فهى تحكم فى ارتداء «الثياب» وفى المراعاة الدقيقة للآداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة بصفة عامة، بل فى التصرف والایماءات والاشارات بحيث يضاف المظهر الخارجى الملائم إلى السلوك الأخلاقى (١٤) .

وقد لاقت آداب كونفوشيوس اقبالا تاماً وحازت الاعجاب العظيم، وقد قيل مرة عن الصينيين: «إنهم وضعوا أرفع قوانين أخلاقية أنتجها العقل البشرى من غير أن يستمد معونة الوحي الإلهى، وإن تعاليمهم البارزة ظلت أغنى ما ورثه كل عصر من العصور الحاضرة المتوالية عن كل عصر من العصور الماضية المتوالية. وقد أعلن هذا خاصة بسبب ذلك المبدأ الذى وضعه كونفوشيوس على لسان المدرس حين يسأل التلميذ قائلا: هل هناك كلمة واحدة يمكن استخدامها قاعدة عامة

لكل تجارب الإنسان التي تمر به في حياته؟ فأجاب المعلم قائلاً:
بلى، أليس في كلمة «تبادل المعاملة» الاجابة المناسبة؟ فما لا تريده
لنفسك لا تقدم عمله للآخرين، ومن الغريب في أخلاقهم أن يكون
هذا بالنفي وليس بالايجاب (١٥) .

وهكذا كانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول، وكان يرى أن
الفوضى التي تسود عصره فوضى خلقية، لعلها نشأت من ضعف
الإيمان القديم وانتشار الشك في ماهية الصواب والخطأ، ولم يكن
علاجها في رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة، وإنما علاجها هو
البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة، وتجديد أخلاقي
قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس قويم صالح والجزء التالى
منقول عن كتاب «التعليم الأكبر» يعبر أصدق تعبير عن المنهج
الفلسفى الكونفوشى (١٦) .

« ان القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء
الامبراطورية قد بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم، ولما أرادوا تنظيم
أسرهم بدأوا بتهذيب أنفسهم، ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدأوا
بتطهير قلوبهم، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولاً على أن
يكونوا مخلصين في تفكيرهم، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في
تفكيرهم بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع، وهذا
التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء .

فلما بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً، ولما كمل
علمهم خلصت أفكارهم، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم،
فلما تطهرت قلوبهم، تهذبت نفوسهم، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت
شئون أسرهم ولما انتظمت شئون أسرهم، صلح حكم ولاياتهم، ولما

صلح حكم ولاياتهم أضحت الامبراطورية كلها هادئة سعيدة.

تلك هي مادة الفلسفة الكونفوشية، وهذا هو طابعها.

الكتابة:

يعتقد أن الصينيين بدأوا منذ الألف الثالثة ق. م. يتوجهون للكتابة وحسب رواية متأخرة فإن الصينيين كانوا يستخدمون أولا للكتابة نظاما معينا، ثم لجأوا لاحقا إلى الكتابة التصويرية التي فقدت صلتها بالأشياء التي ترمز إليها بفضل التزيينات الأسلوبية، التي لحقت بها مما جعلها تتحول في منتصف الألف الثانية ق. م. إلى نظام آخر ومع الزمن، تم تبسيط هذا النظام وتنظيمه، ولكن حتى الآن لم يتغير هذا النظام الكتابي بشكل جوهري بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة من استخدامه (١٧).

وقبل أن يكتشف الصينيون الورق كانوا يستخدمون للكتابة شرائط طويلة مصنوعة من أعواد البامبو، ثم درع السلحفاة والعظام وألواح الخشب والأحجار وأواني النحاس الخ، بينما لجأوا إلى استخدام الحرير أيضا وقد كتبت النصوص الطويلة على شرائط البامبو وعلى الحرير بينما كتبت النصوص القصيرة «المعادلات السحرية المختلفة وأسماء الناس الخ» على مواد أخرى.

وفي القرن الخامس الميلادي سجل لنا مؤرخ البلاط «فان يه» كيف أن «تساي لون» اكتشف سنة ١٠٥ م، طريقة لانتاج الورق «نظرا لأن الحرير كان غاليا وشرائط البامبو ثقيلة مما كان يجعلها غير مناسبة للكتابة»، وكما يضيف المؤرخ فان يه فإن الورق منذ ذلك الحين أصبح يستعمل في كل مكان (١٨).

إلا أن المؤرخين اليوم لديهم ما يجعلهم يعتقدون أن اكتشاف الوسيلة لانتاج الورق لا يرتبط بفرد واحد بل بسلسلة من الاكتشافات، والاضافات للأفراد الذين سبقوا تساي لون، وعلى كل حال أن هذا الرأي يدعمه الآن اكتشاف قطعة من الورق تعتبر أقدم قطعة ورق معروفة حتى الآن وهي تسبق تقرير تساي سنة ١٠٥ م.

وقد سجل لنا المؤرخ فان يه أن تساي لون قد استخدم لانتاج الورق لحاء الشجر والحبال القديمة والخرق البالية وشبكات الصيد القديمة، وقد عمد تساي إلى طحن هذا المواد الأولية وإضافة الماء من حين لآخر حتى توفرت له عجينة، ثم فرش هذه العجينة على شكل شريحة رقيقة فوق مصفاة، وحين جف الماء أخذ شريحة الورق ودقها لكي تجف تماما، وبهذا الأسلوب توصل تساي لون إلى طبق رقيق ومتين من الورق. (١٩)

وكان الصينيون في عصورهم الكلاسيكية يعمدون إلى الإكثار من الكتب عن طريق النسخ، ونظرا لتعقيد الكتابة الصينية، فإن النسخ كان عملا مرهقا بالنسبة للنساخ الصينى، وذلك بالمقارنة مع عمل زملائهم في حوض المتوسط، ولذلك فليس من المستغرب أن النساخ الصينيين كانوا يرتكبون أخطاء كبيرة مما كانوا يتسببون في مشاكل مشابهة لتلك التي كان يتورط بها النساخ في اليونان أو في أوروبا.

ومن هنا فقد كانت طبقة رجال الدين القوية تهتم دائما بهذه المشاكل، وبالتحديد في كيفية الحفاظ على الشكل الأصلي للنصوص الدينية المقدسة سواء كانت كونفوشيوسية أو بوذية (٢٠).

معالم تربوية :

كان كونفوشيوس بطبيعة الحال أبرز المربين الصينيين، إذ مارس رسالته معلما أو حكيما أكثر تبكيرا فى حياته من معظم زعماء البشرية. وما أن بلغ سن الثانية والعشرين حتى ذاع صيته فعلا لحكمته ولحياته المستقيمة معا، فضلا عن ذلك، كانت له موهبة عظيمة فى الفصاحة، ولما شجعه نفر من عشيرته المتحمسين، قرر أن يفتح مدرسة، وكان ما انتهى إليه هذا الأمر هو أنه فتح داره لأى شخص يريد العلم، وكانت المصروفات تجبى على أساس قدرة التلميذ على الدفع، بيد أن «كونفوشيوس» لم يبدأ بتقديم نوع من الحكمة المجردة، لقد أخذ على نفسه تعليم «موضوعات» معينة أهمها التاريخ والشعر ومبادئ ما أسماه بالسلوك العام، Decorum، ولما كان فى اعتقاده أن المجتمع يعانى من اجمال الحكمة التقليدية، لذلك فقد بذل «كونفوشيوس» جهودا مضنية ليلقن تلاميذه معنى الشعائر القديمة والأناشيد الرسمية، ناهيك عن مثل تلك المستودعات من الحقيقة «كتاب التغيرات»، وكان فوق كل شىء على إيمان كبير بفعالية وتأثير الموسيقى فى الصقل الأخير لشخصية الإنسان (٢١).

ومن تعاليمه : (٢٢)

- أن كلا من الحاكم والملك يأمر كبير وزراءه أن يبلغ دروسه فى الفضيلة إلى ملايين الناس.

- يجب على الأبناء - فى خدمة والديهم - عند صيحة الديك الأولى، أن يغسلوا أيديهم، ويمضضوا أفواههم، ويمشطوا شعورهم ويغطوها بغطاء حريرى ويشتوه بالدبايس، ويربطوا الشعر

عند منابته بعصابة، ويمسحوا ما كان عالقا من الأتربة بالأجزاء غير المغطاة، ثم يرتدوا غطاء رؤوسهم تاركين نهايات الأربطة مرسله، وبعدئذ يجب عليهم أن يرتدوا سترهم السوداء المناسبة، وأن يغطوا ركبهم بغطاء يشتون فيه ألواحهم الصغيرة، وعليهم أن يعلقوا أدواتهم المناسبة التي سيستعملونها على يمين المنطقة وعلى يسارها، فعلى الجانب الأيسر توضع الممسحة والمنديل والسكين والمسن ومسمار ومراة لاشعال النار فى الشمس، وعلى الجانب الأيمن قمع للابهام وسوار يلبس على الذراع واسطوانة توضع فيها آلات الكتابة وحافطة للسكين ومسمار كبير وملقط لالتقاط النار من الخشب، ويجب عليهم أيضا أن يرتدوا عقودهم وأن يحكموا رباط أحذيتهم.

وكان كونفوشيوس يعتقد أن البعد عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم، وكان شديد المراعاة للمراسم وكانت قواعد الآداب والمعاملة طعامه وشرابه، وكان يذل قصارى جهده للمحد من قوة الفرائز والشهوات وكبح جماحها، بمعقيدته المتزمته الصارمة، «سدى أنه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان، ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوما من الأيام مقولة فيها بعض التواضع: «قد يوجد فى كفر من كل عشر أسر رجل فى مثلى» نبلى واخلاصى، ولكنه لن يكون مولعا بالعلم مثلى»، وقال مرة أخرى «قد أكون فى الأدب مساويا لغيرى من الناس ولكن «خلق» الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو مالم أصبل إليه بعد». «لو وجد من الأمراء من يولبنى عملا لقمت فى اثنى عشر شهرا بأعمال جلييلة، ولبلغت «الحكومة» درجة الكمال فى ثلاث سنين» (٢٣).

على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام أنه كان متواضعا فى عظمته،

ويؤكد لنا تلاميذه أن «المعلم كان مبراً من أربعة عيوب: كان لا يجادل وفي عقله حكم سابق مقرر، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائده، ولم يكن أنانياً أو أنانياً». وكان يصف نفسه بأنه «ناقل غير منشئ»، وكان يدعى أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلمه من الأمبراطورين العظميين يو، وشون، وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول: لست أبالي مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً، وإنما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليفاً بذلك المنصب الكبير، وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى، ولكنى أعمل على أن أكون خليفاً بأن يعرفنى الناس» (٢٤).

ولم تؤسس الحكومة الصينية فى الزمن القديم مدارس نظامية لتعليم الشعب، إذ كان من الصعب جداً إدارة مدارس تكفى لأمة بمثل ضخامة الأمة الصينية، لكن الحكومة رأت أنه يكفىها أن تشجع التعليم بالأا تقبل فى وظائفها العادية ولا مراكزها السامية إلا من كان متعلماً، وبذا أسست الحكومة لجنة امتحان أعضاؤها هم «هان لن» أو «المجمع العلمى» فى بكين فنظم المجمع امتحانات فى مواعيد محددة كل سنة أو مرة كل سنتين بحسب أهمية الامتحان، وكان باب الامتحان مفتوحاً للجميع ماعدا أبناء الحلاقين ومن شاكلهم (٢٥).

وكان نظام هذه الامتحانات تاماً بمعنى الكلمة سنة ٧٠٠م، على أن التعليم كان منتشرًا فى جميع أنحاء الصين فى زمن كونفوشيوس، أى فى القرن السادس قبل الميلاد، والأعجب من هذا أن المدارس كانت كثيرة قبل كونفوشيوس بقرون عديدة، وكان للتربية منزلة رفيعة فى أعين المفكرين والحكام.

ويذكر أحد المؤرخين أن الصينيين كانوا يهتمون بالتربية منذ سنة

٢٠٠٠ ق.م. فكان الحكام يلاحظون المدارس والكلليات بأنفسهم وتعلم في هذه المعاهد أبناء الأشراف في زمن الاقطاعات، أما عصر كونفوشيوس، فقد كان عصر اضمحلال، فجاء هذا المصلح ليعيد للتربية الصينية مجدها السابق وكان غرضه هو وأتباعه ألا تكون المراكز والوظائف وراثية. بل يجب أن تكون لمن يظهر تفوقا على أخوانه في امتحان مسابقة عامة، وانتشرت امتحانات المسابقة انتشارا عظيما في القرن الثامن قبل الميلاد (٢٦) .

وعندما قبضت أسرة «تشو» على زمام الملك سنة ١١١٥ ق.م. اعتادت الحكومة أن تمتحن طالبى التوظيف، وكان الصينيون فى ذلك الوقت قد بلغوا درجة عظيمة فى التربية، ولذا كانوا يمتحنون طالب التوظيف فى الفنون الجميلة وهى:

الموسيقى والرماية والفروسية والكتابة والحساب، وكان على الطالب أن يكون ملما الماما تاما بالآداب العمومية وآداب المجتمعات، وعدوا هذا فنا جميلا سادسا، فهذه التربية السادسة تذكرنا بالمنهج الثلاثى والمنهج الرباعى فى المدارس الأوروبية فى القرون الوسطى.

وفى القرن الثامن قبل الميلاد كانت تعاليم كونفوشيوس قد انتشرت ولذلك تحتم على الطالب أن يبرهن على حسن سلوكه وأمانته، وكان امتحان التوظيف قسمين:

١- مهارتهم فى الفنون الجميلة الستة التى سبق ذكرها.

٢- الماهم بواحد أو اثنين من العلوم الآتية :

القانون المدنى - الأعمال الحربية- الزراعة- جباية وإدارة

الأموال - جغرافية الامبراطورية مع التفات خاص إلى طرق
المواصلات المائية.

وكانت الامتحانات تقسم إلى أقسام ثلاثة (٢٧) .

١ - امتحانات الدرجة الأولى، وتجرى مرة كل ثلاثة أعوام،
ويطلب من الطالب فيها أن ينشئ ثلاث رسائل فى موضوعات
مختارة من كتاب كونفوشيوس ويوضع فى حجرة خاصة منفصلا
عن غيره حيث يمكث ٢٤ ساعة وهو يجهد عقله فى كتابة
الموضوعات ونسبة النجاح فى هذه الامتحانات ضئيلة جدا
لا: جاوز ٤ ٪.

٢ - امتحانات الدرجة الثانية، وتقام بعد مضي أربعة أشهر على
امتحانات الدرجة الأولى، وتجرى مرة كل ثلاثة أعوام أيضا وتقوم
ثلاثة أيام وتشبه فى أسلوبها ونهجها الامتحانات الأولية إلا أنها
أهم منها وأكثر صعوبة، ونسبة النجاح فيها ضئيلة أيضا لا تتجاوز
١ ٪.

٣ - امتحانات الدرجة الثالثة، وتقام فى العاصمة وتلوم ثلاثة عشر
يوما ونسبة النجاح فيها أكبر منها من الامتحانات السابقة :
ومن أمثلة الموضوعات التى يسأل فيها الطلاب:

(أ) أن يكون الإنسان مقتدرا ويطلب المعونة من العاجزين . أن
يكون الإنسان عالما ويطلب العلم من الجهال، وأن يكون غنيا
ويظهر بمظاهر الفقر.

(ب) يجب أن يكون الرجل المخلص ذكيا، ويجب أن يكون
الرجل الذكى أمينا.

ولذا كنا لم نشهد نظاما تعليميا حكوميا، إلا أننا نلاحظ انتشار مدارس القرى، وهى معاهد خاصة ساذجة لاتزيد قليلا عن حجرة واحدة فى كوخ صغير، كان يدرس فيها معلم واحد ويتناول أجره من آباء التلاميذ، وكان أجر ضئيلا (٢٨) . ولم يكن يلج هذه المدارس إلا أبناء القادرين، أما الفقراء فلم تتح لهم فرصة التعليم، وغالبا ما كانت تأخذ المدرسة مكانها فى معبد من المعابد إذا لم تجد كوخا مناسباً أو سقيفة أو ركناً يأوى التلاميذ، ولم تكن هناك مدارس للبنات ولا تعليم لغالبية التلاميذ بعد سن الخامسة عشر، ولم يتعد الذين جاوزوا التعليم الابتدائى «الأولى» هذا أكثر من خمسة فى المائة.

على أن الدراسة بهذه المدارس المتواضعة خضعت لنظام صارم، فكان الأطفال يأتون مع مطلع الشمس ويدرسون إلى قرب المغيب، ولهم فترات راحة يتناولون فيها طعامهم، وفى هذه المدارس كان التلاميذ يتعلمون القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وشيئا من كتابات كونفوشيوس وبعض الشعر، ووصفت اللغة التى استخدمت بالمدارس بأنها لغة ميتة لاتستخدم خارجها، ولهذا فإن العمل المدرسى لم يكن يعنى الكثير عند التلاميذ، خاصة أن المعلم كان يلجأ إلى تحفيظهم على ظهر القلب، وإلى استخدام العصا لتأكيد هذا الأسلوب فى التعليم (٢٩) .

ولذا كان غرض التربية فى مراحل التعليم الأولية فى التربية الصينية هو أن يلم الصينى باللغة والآداب المقدسة. فمعنى هذا أن البنت لم يكن لها أى تقدير ولا منزلة فى تعليمهم الأدبى، أو فى معاهدهم التربوية، ونقصد بالإلمام هنا معرفة حرفية مطلقة للآداب بحذاقها ومقدرة على إنشاء أسلوب شكلى ونمطى فى كتاباتهم (٣٠) .

وإذا كانت مرحلة التعليم الأولى مخصصة لاستذكار أشكال الرموز المختلفة وذلك يحفظ بعض النصوص التي أجمع على اختيارها وحفظ الكتب الدينية التسعة، فإن المرحلة الثانية كانت مخصصة بالترجمة أى حل تلك الرموز، وكما أن المرحلة الأولى كانت مخصصة بمجرد استذكار أشكال هذه النصوص والدروس الانشائية فالمرحلة الثانية هى مرحلة قراءة فعلية بمعنى ترجمة تلك النصوص، أما المرحلة الثالثة، فهى مخصصة لكتابة المقالات الانشائية حتى يكتسب التلاميذ فى هذا الفن مهارة كافية تمكنهم من النجاح فى الامتحانات ويتطلب هذا التدريب على تحرير المقالات دراسة عنيفة لصور الآداب وموادها، ومن المرحلتين الاخيرتين، يتألف التعليم العالى (٣١) .

ولم يكن على المدرسين من حرج ولم يحتاجوا إلى شهادة خاصة فى فن التعليم، لكن كان للحكومة الحق أن تفلق أى مدرسة وجدت أنها رديئة، وكان الآباء يستعملون منتهى الحذر فى اختيار المعلم الذى يسلمونه أبنائهم وكان المدرسون فى الغالب من حملة شهادة الفنون الجميلة، وأحيانا كانوا ، أرقى من ذلك، وكثيرا ما كان العلماء يفضلون مهنة التعليم على وظائف الحكومة ، ولذلك كان المعلم أكثر الناس احتراما بعد حاكم المقاطعة. وكان عدد الأطفال الذين يلتفون حول مدرس للتعليم فى مدرسة القرية يتزايد بين العشرين والأربعين، وكانت ساعات التعليم من شروق الشمس إلى الساعة العاشرة صباحا، وبعدها يذهب الأطفال إلى منازلهم للغداء، ثم من الساعة الحادية عشر إلى الخامسة مساء، وكان للمدرس مكتب ومقعد، وكل تلميذ يجلب من منزلة مكتباً ومقعداً لنفسه، ويدخل التلميذ

المدرسة فى سن السابعة تقريبا، وعندما يدخل طفل المدرسة، تقيم أسرته الأفراح احتفالا بذلك، وأول عمل يعمله الطفل عند التحاقه بمدرسة، هو حرق البخور أمام مذبح كونفوشيوس، وإذا لم يوجد مذبح، فكل ورقة عليها اسم ذلك المصلح الكبير تكفى للغرض، وبعد ذلك يحيى أستاذه بكل احترام ووقار (٣٢). وعند مجيء التلاميذ ينحنون أمام صورة اله العلم وهى من أقيح الصور، ثم ينحنون للمعلم، وبعد ذلك يجلسون!!

وثمة نقطة أخرى تتعلق بطبيعة التربية الصينية جديرنا أن نشير إليها، فبينما يخصص للتعليم معهد خاص - وهو المدرسة - فإن الأسر، تقوم بتمهيد الأساس له بصفة خاصة، فغرس الأخلاق لدى الصينيين هو من مهام الأسرة ومحتويات أدبهم المقدس مرتبطة ارتباطا تاما بهذه العلاقات - وعماد ديانتهم عبادة السلف - وأن تقوى الأبناء هى أعظم فضيلة لديهم، بل هى سيدة الفضائل، والأسرة حقيقية هى أساس النظام الاجتماعى، وذلك لأن خطيعة الآباء قد يعاقب عليها الأبناء - على أن تشريعاتهم وأخلاقهم لا تخرج فى روحها عن الروح والقواعد التى رسمتها العلاقات العائلية - وبهذا الشكل، تسيطر الأسرة على المجتمع كما سيطرت نسبة الحياة إلى الجماد على الشعوب البدائية (٣٣).

ويشهد جميع الباحثين الموثوق بهم أنه ليس هناك أى قطر من الأقطار ترى فيه التربية شكلية وتقلب عليها الصبغة الأدبية ولها من النفوذ العظيم ما للتربية فى الصين - وبأنه ليس هناك أى مكان آخر كان للتربية فيه نفوذ مباشر ودائم فى صيغ خلق الشعب بصبغة خاصة، وبأنه ليس هناك أى مكان آخر توجد فيه مظاهر نشاط التربية

وعملياتها، وعلى هذا، فالصين أصبحت بلاد الوحدة المطلقة، نتيجة
لنظم تربيتها، فهي بلاد العرف والتقاليد المرعية، وهي البلاد التي
لايسمح فيها بأى تغيير فى الطرق المعمودة فى التفكير والوجدان
والعمل، وإن حدث مثل هذا التغيير فهو نادر، ومع ذلك فالتربية
محدودة فى موادها، شكلية فى طرقها، وعلى نمط واحد لايتغير فى
تنظيمها (٣٤) .

هوامش الفصل الرابع

- ١- ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦م، ج٤ ص ١١
- ٢- المرجع السابق ص ١٣
- ٣- المرجع السابق ص ٢٣
- ٤- المرجع السابق ص ٢٩
- ٥- احمد فهمى القطان: تاريخ التربية ، ص ٨٢
- ٦- المرجع السابق ، ص ٨٣
- ٧- توملين : فلاسفة الشرق ص ٢٨١
- ٨- المرجع السابق ص ٢٨٢
- ٩- المرجع السابق ص ٢٨٣
- ١٠- المرجع السابق ص ٢٨٨
- ١١- المرجع السابق ص ٢٨٩
- ١٢- مولرو: المرجع فى تاريخ التربية ج ١ ص ١٨
- ١٣- المعتقدات الدينية ص ٢٨٦
- ١٤- المرجع السابق ص ٢٨٧
- ١٥- الموجع السابق ص ١٩
- ١٦- قصة الحضارة ، ص ٥٤ ، ٥٥
- ١٧- تاريخ الكتاب ، القسم الأول ص ٤٧
- ١٨- المرجع السابق ص ٤٨
- ١٩- المرجع السابق ص ٤٩
- ٢٠- المرجع السابق ، ص ٥٠
- ٢١- توملين ، فلاسفة الشرق، ص ٢٨٧

- ٢٢- المرجع فى تاريخ التربية ص ٢٠
- ٢٢- قصة الحضارة ، ص ٤٤
- ٢٤- المرجع السابق ص ٤٥
- ٢٥- احمد فهمى القطان ص ٨٤
- ٢٦- المرجع السابق ص ٨٥
- ٢٧- عبدالله عبدالدايم: التربية عبر التاريخ ص ٣٥
- ٢٨- سعد مرسى أحمد: تطور الفكر التربوى ، ص ٧٤
- ٢٩- المرجع السابق ص ٧٥
- ٣٠- المرجع فى تاريخ التربية ص ٢٦
- ٣١- المرجع السابق ص ٢٧
- ٣٢- احمد فهمى القطان ص ٨٦
- ٣٣- المرجع فى تاريخ التربية ص ٢٢
- ٣٤- المرجع السابق ص ٢٥

الفصل الخامس

التربية عند بني إسرائيل

مقدمة :

من أكثر الكتابات لفتا للنظر مما تستحق معه أن نقدم بها الجزء الحالي هو ما كتبه المفكر الفرنسي الشهير «جوستان لوبون» الذي أخرج كتابا هاما سنة ١٨٨٩ باسم «الحضارات الأولى» ورد فيه جزء خاص باليهود القدماء، أكد فيه لوبون (١) !

ولم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أى شىء تقوم به حضارة واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت فى شيد المعارف البشرية، واليهود لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التى ليس لها تاريخ، وإذا ما صارت لليهود مدن فى نهاية الأمر، فلما أدت إليه أحوال العيش بين جيران بلغوا درجة رفيعة من التطور، بيد أن اليهود كانوا غاية فى العجز عن أن يقيموا بأنفسهم مدنها ومعابدهم وقصورهم فاضطروا فى ابان سلطانهم أى فى عهد سليمان، إلى الاستعانة بالخارج، فخلبوا مه لذلك الغرض بنائين وعمالا ومتفنين لم يكن بين بني إسرائيل قرن «مثل» لهم.

وعلى ما كان من هؤلاء «المتفنين» الصغرة الكيفية فى نشوئها العقلى مثلت بالديانات التى صدرت عن معتقداتها دورا بلغ من الأهمية فى تاريخ العالم ما يتعذر معه عدم الاكتراث لها فى تاريخ الحضارات .

نستشهد بهذا القول اجابة على تساؤل قد يطرح علينا يتصل
بمحدى أهمية وضرورة الكتابة عن التربية عند بنى إسرائيل، خاصة
ونحن نلتزم إلى حد كبير بالتأريخ للتربية فى «الحضارات» التى شهدتها
تاريخ البشرية، ولا يمكن أن يزعم أحد أنه قد كانت لهؤلاء «حضارة»
خاصة بهم كما كان للهنود والصينيين والمصريين وغير هؤلاء وهؤلاء
ممن ذكرنا وممن سوف نذكر.

ان التاريخ كما نؤكد بصفة مستمرة ليس مجرد متحف نجول فيه
بههدف «المعرفة» فقط، وانما لابد كذلك من الربط بين ما «مضى»
وما هو واقع، وواقع حياتنا المعاصرة يشير بكل الأسى والأسف إلى
حقبة فيها صورة من صور «الهيمنة» لأعقاب بنى إسرائيل، لا على
الأمة العربية المعاصرة فحسب، بل على القوى الكبرى فى النظام
العالمى مما يوجب درس «البدايات» حيث سبق لنا أن أشرنا إلى أن
درس البداية يعين إلى حد كبير على فهم ماحدث بعد ذلك، وبالتالي
حسن التعامل والمواجهة.

النشأة:

أول مانسمع عن اليهود فى التاريخ مع إبراهيم- أبى الأنبياء
إبراهيم الخليل- الذى ظهر مع قومه فى القرن الثامن عشر قبل
الميلاد، كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية
لجنوب العراق، الذى كان يؤلف دولة الكلدانيين فى «أور»، ومن قبل،
كان إبراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشأوا فيها
كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك «الخران
البشرى» الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف كأقليم طرد أو
كصحراء فقيرة، ولكنها «ولود» - يقذف بالموجة تلو الموجة إلى

منطقة الهلال الخصيب المتاخمة الجذابة (٢).

ففى حوالى سنة ١٨٠٠ ق. م هاجر إبراهيم وقومه، فى دورة عكس عقارب الساعة، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا إلى حوران ثم إلى فلسطين، وهناك سيولد له «اسحق» ولاسحق سيولد «يعقوب» ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتأصل الأسباط أو القبائل الاثنا عشرة الشهيرة فى التاريخ والتوراة، ولكن هجرة إبراهيم إلى فلسطين، وإن كانت أولى هجرات القبائل اليهودية، فإنها لم تكن الأخيرة ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد، وإنما على عدة دفعات جاؤا من عدة طرق وتحت عدة قيادات، والهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن السـ ١٤ ق. م (٣).

ولابد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية - أو بالأحرى تسميات- اليهود . ثمة تسميات ثلاث مترادفات: إسرائيل والعبريون واليهود، والأولى نسبة مباشرة إلى إسرائيل، الاسم البديل ليعقوب، أما العبريون فالمقول أنها مشتقة من هجرتهم من كلدان إلى كنعان حيث «عبروا» النهر- نهر الفرات أو نهر الأردن، لاندرى أبهما المقصود تماما، فسموا بالعبرانيين، ويقابل هذه التسمية عند المصريين القدماء كلمة Habiru وعند البابليين Khebiru ولو أن هذه وتلك تعنى- فى رواية- البدو أو اللصوص أو المرتزقة كما وصفهم أعداؤهم فى كنعان إشارة إلى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم، أما التسمية باليهودية فتدل، أصلا على أبناء «يهودا» Judah, Jehudah أحد أبناء يعقوب الذين أصبحوا يمثلون البقية الهامة من بنى إسرائيل بعد الأسر البابلى، فصارت تطلق فيما بعد على الإسرائيليين جميعا، واسم يهودا نفسه قريب من اسم اله الشعب ياهو Jahveh Jehovah (٤).

وحرص كتاب التوراة على تأكيد ملكية أرض كنعان بوعده من

«الرب» لإبراهيم حتى ليحار المرء: أى رب هذا؟! ولماذا كان حرص
«الآباء» بعد ذلك على الهجرة إلى مصر، دون التمسك بوعد الله» (ه).

(قال الرب لابرام- بعد اعتزال الوطن عنه- ارفع عينيك، وانظر
إلى الموضوع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، لأن جميع
الأرض التي أنت ترى، لك أعطيتها، ولنسلك إلى الأبد، قم امش في
الأرض طولها وعرضها لأنني لك أعطيتها) تكوين- ١٣.

ومن ظاهر لفظ (انظر) و (التي أنت ترى) لا تتجاوز الملكية
كيلو مترا مربعا، لكن ما لبث الوعد أن ارتبط بالمشي في الأرض
طولها وعرضها، مما يستدعي امكانية (المرعي)، ثم يتسع المفهوم،
مع تطور أحلام كتاب التوراة، إلى أن (قطع الرب مع ابرام ميثاقا،
قائلا: لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر
الفرات)- تكوين- ١٥.

ولعلمهم- من أجل هذا الميثاق- كانوا يذهبون إلى مصر، بحكم
كونها داخلية في هذا الميثاق، ليبتاعوا من خيراتها، وليتعرفوا إلى
مسالكها ثم ليتسللوا إليها مقيمين متأمرين، علي أمل ا-.

وكان من تمام الميثاق أن الرب سيخرج من صلب ابراهيم اثني
عشر سبطا- أبناء يعقوب، اسرائيل- يملكون أرض كنعان، مقابل
عبادتهم له وحده، وطلب منه أن يختن الذكور علامة هذا الميثاق (٦)

وما لبث ابراهيم أن ورثه باسما عيل من جاريته (هاجر) التي
ارتحلت بابنها إلى الجنوب، إلى واد غير ذي زرع عند بيت الله
المحرم، لتفسح الطريق أمام (سارة) التي أنجبت اسحق الذي أنجب
يعقوب.

وقد هيا لهم (يوسف- ابن يعقوب) في مصر، وارتحل يعقوب
وأبناءؤه بدعوة من يوسف، وكان عددهم سبعين فردا، وظلوا في مصر ما

يقرب من الخمسمائة عام، تكاثروا فيها حتى وصل عددهم إلى عدة آلاف، ثم بدأوا رحلة الخروج من مصر هربا من فرعون مصر سنة ١٢١٣ ق.م (٧).

وبدراسة (الأسباط) يتبين لنا أن اليهود علي الرغم من أنهم كانوا علي الدوام يزعمون أنهم شعب واحد، ويلقبون أنفسهم جميعا ببني اسرائيل، ويتظاهرون بعبادة الله، ظلوا طوال تاريخهم أسباطا منفصلة في أفلاكها وفي أخلاقها وفي تقاليدها وفي عباداتها حين كانت تعبد الألهة الوثنية. بل لقد كانت لا تفتأ العداءات والحروب والمعارك أن تنشب بين أسباطهم. ولم يكونوا يتورعون في هذا السبيل عن أن يتحالف بعضهم ضد بعض مع الممالك الأخرى الأجنبية، ومن ثم فقد كان اليهود في كل أطوارهم شعبا مفككا مفتتا تمرزه الخلافات والمشاحنات وتطحنه العداءات والحروب (٨).

وقد ظهر بين اليهود أنبياء كثيرون أرسلهم الله ليؤمروهم علي شروهم التي ارتكبوها ويحضوهم علي العودة إلى طريق الله، التي تنكبوها، ويحثوهم علي العمل بشريعته التي أنكروها وتنكروا لها، وينبؤهم بما أعده الله لهم من خلاص للذين يؤمنون به ويتقونه، ومن هلاك للذين يكفرون به ويتمردون عليه. وقد كتب بعض أولئك الأنبياء أسفارا ينوءاتهم تحمل أسماءهم، وقد تضمنتها التوراة بعد أن أوردت طرفا من سيرتهم، بينما اقتصر الأمر بالنسبة للباقين علي لمحات من أعمالهم وأقوالهم جاءت متناثرة في الأسفار الأخرى من التوراة. بيد أن أولئك هؤلاء يجمع بينهم أن الله اختارهم واتصل بهم وأبلغهم رسالة ليعلموها أو كلّفهم بمهمة ليؤدوها، فأبلغوا الرسالة وأدوا المهمة في طاعة لله وخضوع لمشيئته وخشوع أمام عزته وعظمته. (٩)

وترتبط اليهودية، باسم النبي (موسى) عليه السلام، الذي ولد بمصر من أبوين يهوديين من سبط (لاوى) هما عمران بن قهات وزوجته (يوكابد) وكانا قد أنجبا قبله أخته مريم وأخاه هارون، وكان مولد موسى بعد نحو ثلاثمائة عام وخمسين عاما من مجيء يعقوب وأبنائه إلى مصر، وكان فرعون في ذلك الوقت قد أمر بقتل أطفال اليهود الذين في مصر كي يحد من تزايدهم السريع الخطر علي أمن البلاد، فلما ولد موسى خبأته أمه في سبط بين الحلقا على حافة نهر النيل. وقد تصادف أن نزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل فرأت السبط ووجدت بداخله الطفل، فعطفت عليه وتبنته وجعلت اسمه (موسى) أى باللغة المصرية القديمة (ابن الماء)، أو (المنتشل من الماء) (١٠) وحين اشتد عوده سلمته إلى الكهنة، فتشقف على أيديهم وعرف كل أسرار الكهنوت المصرى، كما أتقن كل العلوم والآداب والفنون المصرية التى كان الكهنة هم أساتذتها وصفوة المتخصصين فيها.

لكن عالم التحليل النفس الشهير (فرويد) لا يكتفى بالإقرار بأن اسم (موسى) مصرى، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى أنه مصرى الجنسية، فهو يستعين بما كتبه (برستد) فى (فجر الضمير) من ملاحظة أن اسم موسى هو الكلمة المصرية «موس» Mose ومعناها (طفل)، وهى اختصار لأسماء من قوم (آمنموس) ومعناها (آمون- طفل) و (تياحموس) ومعناها (بتاح- طفل)، وهذه بدورهما اختصار لشكل آخر هو (آمون منح طفلا) أو (بتاح منح طفلا)، ثم أصبحت كلمة طفل (موس) تغنى عن بقية الاسم. وكذلك فإن كلمة (موس) بمعنى طفل ليست قليلة الشيوع فى الآثار المصرية، ولا بد أن والد موسى ثبت قبل اسم ابنه اسم اله مصرى مثل آمون أو بتاح، ولكن هذا الاسم المقدس محى تدريجيا مع الاستعمال المستمر حتى أصبح

الغلام يدعى (موسى) فحسب (١١).

ثم يعقب فرويد على رأى (برستد) بأن هذا المؤرخ فى ذكره لبعض الأسماء التى تحمل لفظ «موس» تجاهل أسماء بارزة مثل (آح- موسى) - أحمس- و (تحوت- موسى- تحتمس-)، (رع- موسى) - رمسيس- مما يرجح- أو على الأقل- يبرز احتمال مصرية موسى (١٢).

التكوين السياسى والاجتماعى:

نشأ اليهود منذ آبائهم الأوائل فى قبائل تحكمها النظم والتقاليد القبلية. بعد أن كانوا قد هاجروا إلى أرض كنعان (فلسطين)، حدث جوع فيها، فهاجر يعقوب (اسرائيل) إلى مصر حيث كان أحد أبنائه (يوسف) قد أصبح ذا مكانة عظيمة لدى فرعون، الذى نجح فى أن يهبهم أرضاً تقع فى الجزء الشرقى من الدلتا، وكانت من أجود أراضي مصر (١٣).

ثم خرج بهم النبى موسى حوالى سنة ١٣٠٠ ق.م وذلك هرباً من اضطهاد فرعون (رمسيس الثانى)، الذى استبعدهم وتمرر حياتهم فى الطوب والملاطه انتقاماً منهم لتعاونهم فى خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر. (١٤).

وفى التوراة أن قوة هذا (الخروج). كانت ٦٠٠ ألف نسمة، وكانت العودة إلى أرض كنعان الهدف، غير أن خوف اليهود من الكنعانيين العمالقة أدى بهم إلى المعصية فعقاب (التيه) فى سيناء أربعين سنة.

انجذب بنو اسرائيل إلى أرض كنعان يحدوهم الأمل فى اغتراف (اللبن والمسل) من أنهار جنة الأحلام، ولم تكن شراذم البدو

الاسرائيليين تعتمد على جيش منظم يجيد الكر والفِر، ولا على قيادة موحدة ينضم الجميع تحت لوائها، بل كانت من قبيلة تسير وفقا لهواها تمارس ألوانا من السلب والنهب لا من الحروب النظامية، فلم يكن هناك غزو لأرض كنعان تلاه احتلال بل حدث تغلغل بطيء دام عدة أجيال استخدمت فيه كافة الأساليب من حرب العصابات، الى احترام الارتزاق لدى جيوش كنعان، حتى تمكنت القبائل الإسرائيلية من الاستيلاء على الهضاب المرتفعة شرق الأردن ثم غربه^(١٥).

وكان نجم الفراعنة قد أفل في كنعان واستوطنت فيها قبائل الفلسطينيين الآتية من بحر ايجة، واحتلوا منطقة الساحل وأقاموا مدنا مزدهرة ودارت مناقشات بين الفلسطينيين والاسرائيليين، عظمتهما الأساطير حول شخصية (شمشون) ثم تمكن (شاؤول) من توحيد بين اسرائيل، وأقام أول مملكة في أرض كنعان.

وتميزت حروب بنى اسرائيل بالقسوة والعنف والتعطش الى الدم، مثل قتل الرجال والنساء والأطفال والعجائز، بل حتى الأبقار والمعز والحمير، وحرق المدن بعد نهب الفضة والذهب وأدوات الحديد والبرونز، كما فعلوا بمدينة (أريحا) حتى تكون عظة لغيرها، والتككيل بالأسرى، ثم شنقهم في الطرقات العامة.

ولقى شاؤول وثلاثة من أبنائه حتفهم على يد الفلسطينيين، فشرع زوج ابنته (داود) في تكوين دولة مستقلة في الجنوب، معتمدا على قبيلة يهوذا نصف الاسرائيلية ونصف الكنعانية، ودارت حرب طاحنة بين ملك يهوذا في الجنوب (داود) وملك اسرائيل في الشمال (ابن شاؤول) انتصر خلالها داود ووجد الملك بيديه واختار أورشليم عاصمة له^(١٦).

وبلغت المملكة أوج عظمتها في عهد سليمان، إذ قلد ذلك

الحاكم الطموح كبار الملوك، ولم يفت في عضده جهل الرعاة بالفنون، فاستقدم مهندسين وموادا من فينيقيا، وشيد مجموعة من القصور الفخمة ملأها بالذهب والحير.

وانتقل اليهود في عهد الملوك من رعى الضأن إلى الاشتغال بالزراعة لكن ما أن توفي سليمان حتى تأرجع كرسي الملك من تحت خليفته، وانقسمت شراذم الرعاة وطحنتها الممارك الداخلية، وانقسم الملك بعد سليمان إلى دولتين، مملكة اسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب (في منتصف القرن العاشر ق.م) (١٧).

وفي هذه الأثناء، كانت دولة الآشوريين تزداد قوة، فتوجه سرجون ٧٢٢ ق.م، إلى الشام واستولى على السامرة، ونقل كثيرا من سكانها أسرى، ثم قضى على دولة يهوذا (١٨).

ثم سقطت القدس سنة ٥٩٨ ق.م في يد نبوخذ نصر ملك بابل وساق ما يقرب من سبعة آلاف رجل مسلح وألف عامل مكبلين بالحديد، فكان هذا الأسر البابلي الأول.

وبعد سنوات ثارت مملكة يهوذا بتحريض من مصر، فغضب نبوخذ نصر، ودمر أورشليم سنة ٥٨٦ ق.م، وحرق هيكل سليمان وسلب خزائن المدينة، ونقلها إلى بابل ونقل من سكانها عددا كبيرا، وأخذ معه نحو أربعين ألف أسير (لينوحوا عند مياه الفرات في بابل)، وكان هذا هو الأسر الثاني (١٩).

ويعمل التلمود مانزل باليهود بأنه يرجع إلى فساد حياتهم فقد انتشر الزنا بالأخت وبالأُم، كما انتشر اللواط والمساحقة ومواقعة البهائم، وخلطوا أفضع الملاذ بالطقوس المقدسة، وعدت ضروب البغاء تكريما لعشروت وعد الانهماك في السكر على بسط الأزهار وتحت

ظلال الزيتون نوعا من العبادة.

وطال أسر اليهود في بابل ستين عاما مما ساعد علي الاختلاط بحضارة عالية فضلا عن التزاوج بين الأسري والمجتمع الجديد، إلي أن سقطت الدولة الكلدانية تحت يد الفرس سنة ٥٣٨ ق.م حيث سمح لليهود بالعودة إلي فلسطين.

ولعل من الجائز لنا أن نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولو أننا لا نعرف علي وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التي سلكوها إليها ومن ثم لا ندري إذا كان امتدادهم إليها يرتبط بالشتات البابلي أو بما تلاه من شتات، ففي الجاهلية الأخيرة، كان اليهود غير قليلين في مدن وسط الجزيرة وجنوبها خاصة الحجاز واليمن، ففي الحجاز كانت المدينة وخيبر من معاقلمهم، بل كانت المدينة تحمل اسما يهوديا هو يثرب. غير أن الأرجح أن يهود الجزيرة كانوا في معظمهم عربا محليين متجولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين، أما في اليمن بالذات فقد تحولت أعداد كثيرة من سكان العصر السبئي إلي اليهودية، بل كان أحد ملوك سبأ في القرن السادس الميلادي يهوديا هو ذو القواس، كذلك فقد كان اليهود الحضارمة الذين عمروا الحبشة وأسسوا الامبراطورية الحبشية يهودا أصلا، ثم تحولوا مبكرا إلي القبطية، غير أن ظهور الإسلام صفى اليهودية تماما في الجزيرة العربية نفسها، فيما عدا اليمن (٢٠).

ولم يختلف رعاة الأغنام من بني اسرائيل في نظلمهم عن سائر الرعاة، إذ غلب النظام الأبوي ونسب الولد لأبيه، وتكونت الأسرة البطريركية، وتمتع الأب بحق الحياة والموت علي أولاده، وانزلت المرأة إلي مكانة دنيا وأمسست جزءا من (البيت) شأن الأمة والعبد.

وساد الزواج من الداخل حفظا علي الثروة من الضياع، بل عرف الزواج بالمحارم، وتعددت الزوجات في حدود ضيقة (٢١) ..

وتحول بنو اسرائيل بعد اغتصاب كنعان إلي الاقتصاد الزراعي في ظل سيطرة الاقطاع فانتقل جزء من سلطة الأب إلي شيوخ المدينة، وتعددت الزوجات بالعشرات، ثم سكر الرعاة ولانت طباعهم بعد أن أقاموا في أرض (البن والعسل) وارتدوا عن دين (يهوه) وعبدوا آلهة الزراعة، وانحرفوا بالحياة الزوجية ومارسوا الدعارة.

وتميز عهد التلمود بغلبة طابع المنبوذين، بعد التفرق في الأرض والاقامة في الجيتو والاشتغال بالتجارة

ولم يكن للدين من أثر علي الزواج لدي رعاة الأغنام من بني اسرائيل فشاع الزواج من الداخل حفظا علي الثروة من الضياع، وتمتع الرجل صاحب الثروة بحقوق مطلقة علي زوجاته وأولاده، وثبتت تلك الحقوق في صلب كتاب التوراة، وانتقلت مع تعاليم الدين إلي المراحل الاقتصادية التالية (٢٢) ..

ولما تغيرت الأوضاع الاقتصادية بعد زوال الملكية الجماعية، غلبت تعليم الأنبياء أثر كفاح دام قرونا، فألغى تدريجيا الزواج بالمحارم، وأمسى الزواج رابطة مقدسة ، وتطلب انحلال الزواج «كتاب طلاق» وحرّم الزوج من حق الطلاق في بعض الأحوال.

وأبرمت القبائل حلفا مزعوما مع (يهوه) صارت بموجبه شعب الله المختار، وإن كان هذا لم يمنع سليمان في أوج عظمته من الزواج بأجنبيات أما مع السبي البابلي وذلة اليهود، فقد حظروا الزواج بالأجنبيات غير (اليهوديات) حتى لا يختلط الزرع المقدس بالشعوب

النجسة!!

الدين:

تعددت آلهة اليهود في العهد الأول كما تعددت آلهة العرب في الجاهلية، فكان لكل قبيلة الالهة، أو مظهر من مظاهر الطبيعة تقدسه وتعبده.

لكن ظهور موسى عليه السلام كان نذيرا بتغيير شامل في تاريخ هؤلاء القوم، إذ هز كيانهما هزا وفتح لها آفاقا جديدة لم تكن لتعرفها لولا أن هداه الله، ويتضح هذا التطور من قصيدة عبرية تعتبر من أقدم قطع الأدب العبري على الإطلاق، فهي تعطينا صورة صحيحة لأحوال القبائل الاسرائيلية بعد استقرارها في فلسطين ومنها تنبئ أن القبائل الاسرائيلية وإن كانت متفرقة الكلمة إلا أنها تحس احساسا قويا عميقا بأنها شعب واحد وأمة واحدة ولم يكن هذا الاحساس وليد اقامتهم في أرض كنعان، فالبلاد لم تفتح فتحا موحدا كما ذكرنا، ولكن هذا الاحساس الدفين بالقومية عمل ثم في عصر سابق لاستقرارهم في فلسطين ثم بفضل نبوة موسى ومعجزته الكبرى^(٢٣).

وتصور لنا هذه القصيدة أمرا آخر هو أن هذا الشعور العميق بالقومية كان يرتبط بالاعتقاد في اله جديد تمجده هذه القصيدة يعلو على اله القبائل كلها هو إله موسى خالق الأرض، فاطر السموات.

والكتاب المقدس الأساسي هو (العهد القديم) مرت مادته بأدوار متعاقبة بالاختبار والتوضيح والنشر حتى بلغت شكلها النهائي الحالي، وقد اشترك كثيرون من المعلمين والمؤرخين في كتابته من بعد بعثة موسى عليه السلام.

وكان أهم أثر لأنبياء بنى اسرائيل فى معاصريهم هو كتاب التوراة وكان سبب كتابتها أن الشعب شرع يرد عن عبادة (يهوه) إلى عبادة الآلهة الأجنبية، فأخذ الكهنة يتساءلون: ألم يأن لهم أن يقفوا رقعة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية^(٢٤). وراوا الأنبياء يعززون إلى (يهوه) ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدونها، فاعتزموا أن يلغوا الناس رسالة من الله نفسه فى صورة سنن الهية تبث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية، وسرعان ماضموا إلى جانبهم الملك (يوشيا) فلما كانت السنة ١٨ (عام ٤٤٤ ق.م) أو نحوها من حكمه، أبلغ الكاهن (خلقيا) أنه (وجد) فى سجلات الهيكل ملفا عجيبا فض موسى فيه نفسه من جميع المشكلات التاريخية والخلقية. ودعا (يوشيا) كبارهم إلى الهيكل وتلا عليهم (سفر الشريعة) الذى أصبح (توراة) تزايدت وتراكمت عبر سنوات أخرى تلت^(٢٥).

وبدأ العهد القديم بأسفار موسى الخمسة Pentateuch^(٢٦)، وأول هذه الأسفار، وهو سفر التكوين، يحدثنا عن أصل العالم والبشر ويتبع تاريخ الإنسان حتى تكون نواة الشعب العبرى بإبراهيم وأسرته، ويحكى هجرات أجداد العبريين إلى فلسطين وأخيرا إلى مصر، والسفر الثانى، وهو سفر الخروج، يسوده شخص موسى، ويحكى قصة الفرار من مصر وعلان الشريعة من جبل سيناء، والسفران الثالثان، سفر اللاوية وسفر العدد، يحتويان على مزيد من أحكام الشريعة، وأغلبها مما يمت إلى الطقوس، ويواصلان حكاية التجوال فى الصحراء حتى الوصول إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، وآخر الأسفار الخمسة وهو سفر التثنية ويورد أحكاما أخرى للشريعة على أنها آخر ما فرضه موسى قبل موته وأرض الميعاد على مرأى عينيه.

المشاكل المتعلقة بتأليف بقية أسفار العهد القديم هي عامة أقل خطورة من المشاكل المتعلقة بالأسفار الخمسة، وهي خاصة أقل أثرًا منها في تفسير التاريخ والدين العبريين، فالأسفار التاريخية تواصل تاريخ (الشعب المختار) من حيث انتهت الأسفار الخمسة، وتسير به على نحو يتفاوت كمالات واتصالات حتى القرن الثالث قبل الميلاد.

والعلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصةتان المتشابهتان المنفصلتان كلتاهما عن الأخرى في سفر التكوين، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم (يهوه) على حين تتحدث الأخرى عنه باسم (الوهميم) وفي هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالثنائية، أكبر الظن أن كاتبه أو كاتبته غير كتاب الأسفار السالفة الذكر، وثمة عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد، والرأى الغالب أن هذه الفصول تكون الجزء الأكبر من (سفر الشريعة) الذى أذاعه عزرا. ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صيورتها الحاضرة حوالي سنة ٣٠٠ ق.م. (٢٧).

وقد قيل إن التشريع اليهودى قد تأثر بشريعة حمورابى. ورغم أن هذه الشريعة كانت ذات طابع صناعى تجارى وأن شريعة اليهود كانت ذات طابع زراعى رعوى، إلا أن هنالك ثمة تشابه بينهما.

وكان الكاهن فى الحياة العبرية واسطة بين الله والناس، والكهنة يؤلفون طبقة خاصة فى المجتمع.

وكثير الأنبياء فى بنى اسرائيل نظروا لما شاع من (تعدد) فى الآلهة (٢٨).

وإذا كان مدلول التوراة فى البداية ينصرف إلى الخمسة الأسفار

الأولى من العهد القديم، وهى المسماء أسفار موسى، لكن هذا المدلول لم يلبث أن اتسع فشمل أسفار العهد القديم كلها.

ويعتقد اليهود أن لشريعتهم قسمين: أولهما الشريعة المكتوبة، وهو الذى يسمونه التوراة، وثانيهما الشريعة الشفوية، وهو مايسمونه بالتقليد أو الفقه الذى نشأ عن تدوين أحكامه فيما بعد مايسمونه (التلمود) أى (التعليم) أو (كتاب تعليم ديانة اليهود وآدابهم). ويزعم اليهود أن الله أعطى لموسى الشريعة غير المكتوبة مع الشريعة المكتوبة حين خاطبه على الجبل فى صحراء سيناء، وأن موسى أعطى هذه الشريعة غير المكتوبة لهارون واليعازر ويشوع ثم تواترت بعد ذلك. وينقسم التلمود فى صورته الأخيرة التى انتهى إليها بعد تدوينه إلى قسمين رئيسيين هما (المشنة) و (الجمارة).

واليهود يقدسون التلمود حتى ليعتبرونه أهم من التوراة (٢٩).

معالم يهودية:

وإذا كان اليهود قد عطلوا من الفن والصناعة عطلا تاما، فإننا نجد لهم آدابا غنية متنوعة يجدر بنا الإشارة إليها خاصة وأنها كانت وسيلة أساسية فى تربية اليهود.

ويقف (العهد القديم) هنا فى مقدمة الينابيع التى تدفقت منها الآداب اليهودية، فالكثير من معارفهم التاريخية والدينية مستمدة منه، ومن جملة هذه المعارف - إلى جانب مؤثرات أخرى - يتشكل العقل اليهودى الموجه للسلوك، ففى التوراة تبصر التاريخ والأساطير والأقاصيص الخيالية والقصائد الرعائية والقطع الروائية والنبد التعليمية

والأناشيد الدينية والأغاني الحربية والقصائد الغزلية والمجموعات الحكمية والنسبية والشرعية... الخ^(٣٠).

وإذا ما أنقصنا من قيمة العهد القديم ما فيه من أساطير بدائية، ومن أغلاط مبعثها صلاح الكاتبين وتقواهم، وأقررنا أن ما فيه من أسفار تاريخية لا تبلغ من الدقة أو من القدم ما كان أجدادنا السابقون يفترضونه فيها، إذا مافعلنا هذا كله، فإننا لا نجد في الكتاب طائفة من أقدم الكتابات التاريخية فحسب، بل نجد فيه كذلك طائفة من أجمل تلك الكتابات^(٣١). ولربما كانت أسفار القضاة وصموئيل والملوك قد وضعت على عجل، كما يعتقد بعض العلماء، في أثناء السبي أو بعده بقليل، ليجمع فيها واضعوها التقاليد القومية لشعب مشتت كسير، ويحتفظوا بها على مدى القرون، ولكن قصة شاول وداود وسليمان تفوق في جمال مبناها وأسلوبها غيرها من الكتابات التاريخية في الشرق الأدنى القديم.

والقصص الغرامية الساحرة الواردة في التوراة وسط بين التاريخ والشعر، وليس في المنشور من الكتابة ما هو أدنى إلى الكمال من قصة (راعوث)، ولا تقل عنها كثيرا قصة (اسحق ورفقة) ويعقوب وراحيل، ويوسف وبنيامين، وشمشون ودليلة، وإستر، ويهوديت ودانيال، ويبدأ الأدب الشعري بنشيد موسى (سفر الخروج الفصل الخامس عشر) و (نشيد دبرة)، و (القضاة) في الفصل الخامس عشر، ويبلغ ذروته في المزامير. وكانت ترانيم «التوبة» البابلية هي التي مهدت السبيل إلى هذه الأناشيد^(٣٢).

وفي كل زمان، كان لمجموعات الأمثال أهمية عظيمة في آداب كل أمة، وذلك لما تؤدي إليه من النفوذ في فكرها الأساسي.

ولم تشذ أمثال بنى اسرائيل عن ذلك.

ومن خلال تلك الأمثال التى لم تكن من وضع رجل واحد والثى كانت تتداولها الأفواه فتكتاف فيها تجربة طول القرون، نبصر فكر بنى اسرائيل الحقيقى^(٣٣)، وكان ذلك الفكر نفعيا عمليا، وهو الفكر الذى سيطر على شعب اسرائيل منذ دور الفتح، منذ الزمن الذى علم فيه هذا الشعب الشهوانى قيمة جميع خيرات الأرض فجعلته متحرزا ماهرا طامعا جشعا فى الربح ضيقا فى آفاقه، غير مستعد للتضحية بفائدة الساعة الحاضرة فى سبيل منافع حياة قادمة غير محققة، وفى سبيل إله مثير!

«... الحكيم يخاف فيجتنب الشر، والسفيه من يسير على غير ذلك».

«... الغنى يكثر الأصدقاء والفقير يفارقه خليله، وجميع إخوة المعوز يفضونه».

«... فى كل تعب منفعة، وكلام الشفتين إنما هو الى الفقر».

«... اذهب إلى النملة أيها الكسلان، تأمل طرقها وكن حكيما».

«... العامل بيد رخوة يفتقر، أما يد المجتهدين فتغنى».

«... من يجمع فى الصيف فهو ابن عامل، ومن ينم فى الحصاد فهو ابن مخز».

«... توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت».

ومن النصائح التى تتردد، حكمة تكاد تنطبق ألفاظها على وصف سقراط للفضيلة والحكمة، تفوح بمطر مدارس الاسكندرية حيث كان

علم اللاهوت العبرى يمتزج بالفلسفة اليونانية لتخرج لنا من مزيجها العقلية الأوربية^(٣٤) : «الفطنة ينبوع حياة لصاحبها، وتأديب الحمقى حماقة.. طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة، وريحها خير من الذهب الخالص، هى أثمن من اللآلىء، وكل جواهرك لا تساويها، فى يمينها طول أيامك، وفى يسارها الغنى والمجد، طرقها طرق نعم، وكل مسالكها سلام».

وقد ظل اليهود منذ نشأتهم حتى اندثار دولتهم قوما بدائيين فى طباعهم وعاداتهم وفى أسلوب حياتهم، فلم يخرجوا قط عن طور القبيلة البدوية التى لم تكتسب أى مظهر من مظاهر التقدم، ولم تصل إلى أى مرحلة من مراحل الحضارة، مما يشير إلى أى نوع من التربية سارت إليه تربية اليهود.

ولعل من أبرز الدلائل على تخلف اليهود ومقالتهم فى حالة البداوة الأولى، أنهم حتى فى عهد الملوك - وهو أرقى عهودهم - لم يظهر بينهم كثير من أصحاب الصناعات المتخصصةين، وإنما كانت كل عائلة تستوفى احتياجاتها الخاصة بنفسها، فتبنى بيوتها، وتزرع حقولها، وترعى ماشيتها، وتطحن غلالها، وتخبز خبزها، وتقتل غزلها، وتنسج نسيجها، وتحيك ثيابها وتصنع نعالها. وكانت تفعل ذلك كله وغيره من الاحتياجات العائلية بطريقة بدائية خشنة، لا جودة فيها ولا إتقان^(٣٥).

وقد تعلم اليهود بعض فنون التجارة من الفينيقيين الذين كانوا يجاورونهم، ولكنهم لم يبرعوا براعة الفينيقيين فى التجارة لعجزهم عن صناعة السفن.

كما تعلم بعض اليهود حرفة صباغة المعادن حين كانوا في مصر، ولاسيما الذهب والفضة والنحاس.

وتعلم بعض آخر منذ أن كانوا في مصر صباغة الأنسجة بألوان مختلفة، وكذلك دباغة الجلود، وصناعة الأواني الفخارية.

ولما كانت أرض فلسطين زاخرة بأشجار الزيتون، فقد تعلم اليهود استخراج الزيت منه^(٣٦).

وقد تعلم اليهود شيئا من الطب في مصر، فكان بينهم أطباء، بدليل ما جاء في الشريعة اليهودية من أن من ألحق إصابة بغيره، فعليه أن ينفق على شفاؤه، أى يدفع أجرة تطبيبه، كذلك وردت نصوص تشير إلى الأطباء في عهد ملوك اليهود.

كذلك تعلم اليهود الكتابة من المصريين حين كانوا في مصر، إذ نجد أن زعيمهم الذى أخرجهم من مصر وهو موسى عليه السلام، كان يعرف الكتابة فقد جاء فى سفر الخروج « فقال الرب لموسى اكتب هذا تذكارا فى الكتاب » وكانوا يحفرون ما يكتبون على ألواح من الحجر أو الخزف أو الخشب أو ينقرونه فى صفائح معدنية كالرصاص أو الحديد أو النحاس أو البرونز، أو ينقشونه على أنسجة من الكتابة أو رقائق من الجلد أو لفائف من البرديات المصرية، وكانوا يستخدمون كذلك أقلاما من الحديد يضعون فى رؤوسها أحيانا قطعاً من الماس أو أقلاما من القصب يهذبونها بمادة يصنعونها لهذا الغرض، أو فرشاة يرسمون بها الكلمات رسماً. وكانوا يستخدمون لهذه الغاية نوعاً من الحبر يضعونه فى دواة يعلقها الكاتب فى البردية فى هيئة لفائف مختلفة الطول يسمونها الأدراج، ويلصقون فى كل من طرفيها قضيباً من الخشب بحيث يمكن للقارئ أن يفردها أو يطويها،

ويشير إلى ذلك أشعيا النبي حين يقول «وتلتف السموات كدرج». وكانوا يضعون كل درج من هذه الأدراج في غلاف من الجلد أو الخشب، وكان اليهود يكتبون لغتهم العبرية بحروف مأخوذة في الأصل عن الحروف الفينيقية، التي كانت بدورها مأخوذة في الأصل عن الحروف المصرية القديمة^(٣٧).

وقدر للأسرة العبرانية أن تلعب دورا رئيسيا في نقل مبادئ الدين والتقاليد القومية، فالتوراة تجعل تعليم الشريعة فريضة دينية على الأب أن يقوم بها ووظيفة المجتمع أن يضطلع بها «فلتكن هذه الكلمات التي أنا آمرك بها اليوم في قلبك وكررها على أولادك وكلمهم بها إذا جلست في بيتك وإذا مشيت في الطريق وإذا نمت وإذا قمت». كما جاء في سفر التثنية، وفي عدة مواضع أخرى يكرر العهد القديم هذا الأمر على الآباء ويأمر الأطفال في المقابل باجلال واحترام آبائهم^(٣٨).

فكان على الطفل أن يتربى على أن يكون مخلصا لـ (يهوه)، ولذا لم يكن عليه أن يكتسب معلومات واسعة، بل يكفيه أن يتعلم، عن طريق المثال والقدوة، القواعد الخلقية والمعتقدات الدينية. ولقد قيل بحق أن الاتجاه الذي تأخذه التربية لدى جميع الشعوب، يتصل بما يفهمون من معنى الإنسان الكامل. فهو عند الرومان الجندي الباسل الذي يحتل النصب ويخضع للنظام، وهو عند الاثينيين ذلك الذي يحقق الانسجام بين الكمال الروحي والكمال الجسدي. أما الإنسان الكامل في نظر العبريين فهو التقى الفاضل الذي يبلغ هذا المثل الأعلى الذي سنه الإله نفسه في التوراة إذ قال «كونوا قديسين مثلما أنا قديس أنا ربكم الخالد»^(٣٩).

ويرى بعض مؤرخى التربية أن الأعياد والاحتفالات الدينية لعبت دورا لاتضاهيه أية وسيلة تربوية أخرى فى تلقين النشء تراثهم الدينى القومى. فالأعياد كونت دورة سنوية تلقى وتعلم كل جيل جديد من خلالها الأحداث الهامة فى حياة الشعب وتجربته الدينية والسياسية. وكل عيد دينى كان مناسبة لتدريب الطفل على العبادة وتلقين مبادئ الدين. وقد نصح الآباء بتعليم الأطفال العيد ومعناه فى أثناء الاحتفال به أو قبله. ونظرا لوجود عنصر الدراما فى هذه الاحتفالات الدينية، واعطاء الطفل دورا فى أدائها، فقد كان لها أكبر الأثر فى التأثير على الطفل وتشكيله قوميا، ففي عيد الفصح على سبيل المثال، إذا تساءل الطفل عن معنى أكل الفطيرة بدون خميرة، أجاب الأب: «هذا بسبب ما صنع الرب لى حين أخرجنى من مصر». أما إذا سأل الطفل عن معنى الذبيحة قائلا: ما هذا؟ فالأب يجيب: «أنه بيد قدیر، أخرجنا الرب من مصر، دار العبودية» (٤٠).

كما استخدم سرد التاريخ وسيلة لتلقين الجيل الجديد تاريخ العبرانيين فى أثناء تجوالهم واستقرارهم فى كنعان، فالتقاليد والأساطير والأغاني والقصص نقلت شفويا من جيل إلى جيل قبل أن تدون، وقد قام بهذه المهمة الأب أو الكبار من العائلة. ومن المحتمل أيضا أن الذى قام بهذه المهمة منشدون متجولون، وكان لهذه الأقايصيص جاذبية خاصة لأن بعضها كان يرمى إلى اعطاء إجابة للأسئلة التى يثيرها العقل الإنسانى بخصوص أصل الإنسان والعالم الذى يعيش فيه، وبخصوص الاختلاف بين الأجناس واللغات. وكان الأب يقوم بسرد تاريخ قبيلته لطفله، فالقبيلة بالنسبة لهم كانت كيانا مقدسا، وبهذه الطريقة المثيرة تم تناقل الأفكار والمعتقدات والتصورات والأوهام من

جيل إلى جيل، وقد كان هذا التراث الشفهي من قصص وأغان وحكم يسرد إما للترفيه أو التنوير أو اذكاء العصبية القومية أو بث الإيمان الصحيح والحث على العمل الصالح^(٤١).

وكان الكهنة في الزمن الأول يقومون بتوضيح القرايين العمومية (نقول العمومية) لأن الاسرائيليين كثيرا ما قدموا ضحايا خصوصية كما كانت تفعل الأمم الأخرى، ولا حاجة لحضور كاهن عند تقديم قربان خاص، ولم يسلموا من الاعتقاد في السحر والتعاويذ، إذ كان ذلك شائعا بين جميع أمم الأرض في ذلك الزمن، واختصوا بتفسير الأحلام والتنبؤ عن حوادث المستقبل وكان للكهنة اليد الطولى في تربية الأمة لعلاقتهم بها في أحوال المدنية، فهم الذين كانوا يعطون النصائح والارشادات للأمة، وهم الذين قضوا بين الناس في منازعاتهم وبسطوا حمايتهم على كل مظلوم^(٤٢).

وكانت عامة الناس تعتقد أن الله هو إله العبرانيين وأن مقره في طور سيناء وأن عبادته لا تمنع عبادة آلهة آخرين - لكن المفكرين منهم اعتقدوا اعتقادا أرقى من هذا بكثير، وربما خالفوا الكهنة. أما هؤلاء الأفراد، فهم الأنبياء، فبدأوا ينبشون قومهم ويغرسون فيهم عقيدة روحية راقية من ابتداء القرن الثامن قبل الميلاد، وكان الأنبياء يثبون في أفئدة الأفراد بذور تربية راقية، تربية دينية بحتة، وكلفوا الأمراء والشعب على السواء عبادة الإله الحق^(٤٣).

وفي عهد الأنبياء، ظهرت فئة الكتبة وعظمت أهميتها، وكانت وظيفة الكتبة المحافظة على القانون وتدرسه. وكثيرا ما كانوا ينسخون تاريخهم المقدس ومنهم جاءت فئة المعلمين.

ولعله من الضروري أن نشير إلى أن فئة الكاتبين أو الكتبة كانوا قد

ارتقوا وحازوا اعتبارا عظيما قبل سنة ٣٠٠ ق.م وكان لكل فرد الحق في أن يتعلم ويصير كاتباً، ولذلك كثر عددهم بعد عودة اليهود من أسرههم وصاروا فئة العلم والقانون ومن نوابغهم خرجت فئة المعلمين الذين كانوا يدرسون تفسير التوراة وشرحها. وخلف الأنبياء الشرائع وألف الكتاب التفاسير فجمعت شملها في كتاب واحد هو التلمود.

وكان تدريس الكتاب شفويا، فاضطر كل من أراد أن ينبغ في التفسير كي يصير معلما أو مستشارا دينيا أن يشحن ذاكرته شحنا ويحملها عبثا ثقيلا، وكان التدريس بصحن المعبد في أورشليم (بيت المقدس) (٤٤).

وكان الكاتب لا يقتصر على التعلم أو التعليم إذا كان فقيرا، بل يعمد إلى الاحتراف بحرفة أخرى يكسب منها عيشه، ولم يكن التدريس قاصرا على فئة دون أخرى، بل كان لكل فرد الحق في أن يحضر تلك الدروس، وكانت هذه المعابد تعرف عند ظهور المسيحية باسم (المدارس الربانية)، وكان تأثيرها في القوم أشد من تأثير الكهنة.

وكان التعليم شفويا جدليا، فالمدرس يسأل الطلبة رأيهم في موضوع خاص وهم يجيبون ولهم الحق أن يسألوه في أى نقطة غامضة في الموضوع أو يناقشونه فيما يقول. وكانوا يجتهدون في استظهار ألفاظ المعلم لفظة لفظة كما هي الحال حتى وقت قريب في معظم بلداننا الشرقية (٤٥).

والحق أنه يمكن القول بأن أول مبنى مدرسي من أجل الدراسة هو بيت الدراسة (بيت هامدراشي بالعبرية)، وتعد بيوت الدراسة هي أولى أشكال (الحلقة التلمودية) التي أخذت شكلا أكثر تحديدا، وظلت تتطور إلى أن أصبحت المدرسة التلمودية العليا (٤٦).

ومن أوائل الحكماء الذين كان لهم بيوت للدراسة أو حلقة دراسية شماي وابتليون، أما أشهرهم فهو هليل الذي حضر من بابل للدراسة في فلسطين، وأصبح شخصية هامة في القدس، وعرف بقدرته ومرجعيته في استخراج الهلاخاه أى الشريعة، وقد عرف اتجاه هليل التربوي والفكري باسم بيت هليل، واشتهرت مدرسته بحفاظها على روح النص التوراتي أكثر من حرفيتها في تفسيرها للتوراة، هذا على عكس اتجاه شماي معاصر هليل الذي عرف باسم بيت شماي واشتهر بحرفيته في تفسير التوراة واستخراج التشريعات، وبتزايد تلاميذ هليل وشماي، ونظرا لكثرة الخلافات بينهما في التفسير، يقال إنه منذ هليل وشماي أصبح هناك شريعتان عند بني إسرائيل، واحدة تتبع بيت هليل، والأخرى تتبع بيت شماي^(٤٧).

ولم تقتصر الخلافات بين المدرستين على الخلافات الفكرية، بل امتدت لتشمل سياسة القبول، فبينما أكد بيت شماي أن دارس التوراة يجب أن يكون حكيما متواضعا ومن نسب كريم معروف، كان بيت هليل يقبل أى طالب يود دراسة الشريعة بغض النظر عن نسبه. وقد تتلمذ على يد هليل كثير من العلماء الذين لعبوا فيما بعد دورا هاما في تطوير الفكر الديني اليهودي.

وبينما شاطر أفراد الطبقة العليا المكتبة علومهم وفلسفتهم، طرأت حركة جديدة سببت للشعب جميعه تقدما محسوسا، ذلك أن اليهود أسسوا المعابد من زمن عزرا في جميع أنحاء البلاد، وكانوا يذهبون اليها كل أسبوع لسماع التوراة وتفسيرها وللقيام بفروض الصلاة.

وبعبارة أخرى، فإنهم أوجدوا للعامة مدارس المعابد، يتلقون فيها مبادئ دينهم، ولا يخفى أن هذه المعاهد كانت عاملا قويا جدا في

ترقية اليهود دينيا وأدبيا وسياسيا، إذا استفاد منها الكبار والصغار، وكان لكل مدينة معبد في القرن الرابع قبل الميلاد، ومن ثم انتشرت، حتى إذا ماجاء القرن الثاني، كان لكل قرية معبد. ويقال أن (قيّم) المعبد كان يعلم الأطفال أثناء الأسبوع، وبذلك أصبحت المعابد مدارس نظامية للأطفال والراشدين معا، لكنه يجب علينا ألا نستنتج من هذا أن جميع الأفراد تعلموا القراءة والكتابة والحساب في القرن الثالث قبل الميلاد، إذ ليس لدينا برهان قوى على وجود مدارس للأطفال قبل سنة ٢٠٠ ق.م. فكل من تعلم شيئا من ذلك قبل هذا التاريخ تلقاه على أيدي والديه في المنزل (٤٨).

وفي ذلك الزمن، ارتقت الأمة اليونانية، فاقبس كتاب اليهود شيئا كثيرا من علومها، وتعلم عدد وافر منهم اللغة اليونانية وآدابها والعلوم الرياضية واللغات الأجنبية والجغرافيا وكل العلوم الطبيعية المعروفة وقتئذ بما فيها علم الفلك، واضطروا أن يترجموا كتابهم المقدس من العبرية إلى اللغة الآرامية، لأن أغلب اليهود في ذلك العهد، كانوا لا يحسنون فهم اللغة العبرية، وهم الذين جعلوا للغة آدابا يجمعها التلمود.

ولم تتطلب دراسة الشريعة في الحلقات التلمودية تعلم التفسيرات والتشريعات المشتقة منها وحسب، وإنما تطلبت أيضا التلمذة على يد المعلم والعيش معه كابن وخادم، وملاحظة سلوكه ومحاكاته، وكان الطالب يتبع معلمه في جولاته أينما ذهب، إما لتدريس الشريعة أو للوفاء باحتياجات الجماعة الدينية أو المدنية، وغالبا ما عاش المعلم وطلابه عيشة جماعية يتناولون طعامهم سويا، الأمر الذي أتاح الفرصة أمامهم للتعلم بشكل دائم والمشاركة في الممارسات المختلفة

للمعلم، التربوية والدينية والاجتماعية، وفي حالة وفاة المعلم كان طلابه ينتقلون إلى معلم آخر وفي بعض الأحيان كان أحسن الطلاب يقيم مدرسة خاصة به، إما في نفس المكان الذي كانت توجد فيه مدرسة معلمه أو في مكان آخر^(٤٩).

ومن العسير أن نختم هذا الجزء الخاص بتربية بني إسرائيل قبل أن «نجمع» الوضع الخاص (باللغة) التي استعملوها، فهي واسطة التربية والتعليم الأساسية، وقد تنقلوا بين أوطان عدة، وتقلبت عليهم الأزمنة والعود مما لا بد أن يكون له أثره في لغة التعليم.

كان إبراهيم الجد الأول لليهود يتكلم باللغة التي كان يتكلم بها الكلدانيون حين كان يعيش في إحدى مدنها، وكانت لغة الكلدانيين هي اللغة (الأكدية)، فلما هاجر إلى (حاران) إحدى مدن الآراميين التي كانت تقع بين النهرين شمال شرقي دمشق، أصبحت لغته هي اللغة الآرامية، ولما انتقل إلى كنعان، كان أهلها يتكلمون العبرية، فتكلم بها، وكانت اللغات الأكادية والآرامية والعبرية كلها من اللغات السامية التي استعملتها الشعوب والقبائل التي ورد في التوراة أنها انحدرت من نسل سام بن نوح^(٥٠).

وقد ظل اليهود منذ نزوح إبراهيم إلى أرض كنعان يتكلمون باللغة العبرية، وقد ظلوا يتكلمون بها طوال إقامتهم بمصر، وإن كانوا ولا شك تعلموا في هذه الفترة اللغة المصرية القديمة أيضا وتعاملوا بها مع المصريين. ولعلهم تأثروا بكثير من تعبيراتها في لغتهم الأصلية، حتى إذا خرجوا من مصر كانت العبرية هي السائدة، وبها كتب موسى أسفاره الخمسة، ثم ظل اليهود يتكلمون بالعبرية ويكتبون بها طوال عهد القضاة، ثم طوال عهد الملوك، إلى أن أغار عليهم الآشوريون

والبابليون وأجلوهم عن بلادهم مشتتين إياهم في مختلف الأرجاء.
وفي أثناء السبي، بدأ اليهود يتكلمون باللغة السائدة في البلاد
التي كانوا مسبيين فيها، وهي الآرامية التي كانت سائدة في ذلك
الحين في معظم البلاد الخاضعة للآشوريين والبابليين، ثم ظلت بعد
ذلك هي اللغة الرسمية في الامبراطورية الفارسية قرونا طويلة ومنها
نشأت اللغة السريانية التي سادت فيما بعد في سوريا وفيما بين
النهرين، ولم يلبث اليهود أن نسوا أثناء السبي لغتهم العبرية تماما (٥١).
غير أنه إذا كانت أسفارهم الدينية مكتوبة بالعبرية، اعتبروها لغة
مقدسة، واحتفظوا بها في أداء شعائهم الدينية، فكان كهنتهم يقرأون
أثناء الصلاة فصولا من الأسفار بالعبرية، ثم يترجمونها شفويا إلى
الآرامية لكي يفهم الشعب معناها، ثم لم يلبثوا أن ترجموا الأسفار إلى
الآرامية ترجمة مكتوبة.

على أنه في العصر اليوناني، حين سادت اللغة اليونانية في معظم
البلاد التي اشتملت عليها امبراطورية الاسكندر الأكبر كان اليهود
القاطنون في معظم أنحاء هذه البلاد يتكلم أهلها باللغة اليونانية ومن
ثم اضطر اليهود الذين كان عدد كبير منهم يقيم في مصر إلى ترجمة
التوراة من اللغة العربية إلى اللغة اليونانية في عهد بطليموس
فيلادلفوس في القرن الثالث قبل الميلاد (٥٢).

التصوير القرآني لأخلاق بني اسرائيل

دون سائر الأمم والعقائد والطوائف والمذاهب حظى بنو اسرائيل
بمساحة كبيرة في كثير من آيات القرآن الكريم بحديث الله عز وجل
مما يوجب أن نفرّد لهذا التصوير القرآني جزءاً من حديثنا عن التربية

فى بنى اسرائيل .

ولربما تحفظ البعض على هذا النهج ، بيد أننا نؤكد هنا ، أن الباحث إذ يؤمن باللهية القرآن الكريم وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه قول الخالق الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فلا بد وأن يكون التصوير القائم تصويراً قائماً على حقائق ووقائع صادقة إلى أقصى ما يمكن تصويره . صحيح أننا ممن يؤمنون بأن القصص القرآنى لا يقصد به (التأريخ) وإنما التوجيه والإرشاد ، إلا أننا لا نطلب من القصص القرآنى عن بنى اسرائيل أكثر من ذلك ، فنحن هنا نبحث عن (الأخلاقيات) ، ومظاهر السلوك الدال على بناء الشخصية ، ولا نبحث بالتحديد عن وقائع تاريخية تعين تاريخاً بذاته أو مكاناً بعينه .

فى سورة البقرة ، آية (٤٣) يخاطب الله عز وجل بنى اسرائيل أمراً بإيهاهم (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) ، ويرتبط بهذا أيضاً قوله لهم (أنأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) الآية (٤٤) .

فلقد زاول بنو اسرائيل هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق فى كثير من المناسبات التى عرضت لهم ، كما فصل القرآن فى مواضع كثيرة منه ، وكانوا - فى كثير من الأحوال - عامل فتنة وبلبله فى المجتمع ، وعامل اضطراب وخلخلة فى الصف البشرى .

وفى الآية الثانية يشير عز وجل إلى آفة رجال الدين - حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة - كما حدث بالنسبة لأجبار اليهود ، أنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، ويدعون إلى البر ويهملونه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه

ويؤزلون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان (٥٣).

وفى الآية (٦١) يقول عز وجل: (... وضربت عليهم الذلة والمسكة وباعوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون).

تشير هذه الآية إلى حقيقة تاريخية تؤكد أنه لم يشهد تاريخ أمة ماشهده تاريخ اسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة، فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عددا من أنبيائهم - وهى أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاء الحق المخلصين - وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا أبشع المعصية، وكان لهم فى كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل.

ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجبية، كانوا دائما يدعون أنهم وحدهم المهتدون، وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله، وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك، وهنا يكذب القرآن هذه الدعوى العريضة فى الآية التالية من سورة البقرة (٦٢): (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، فهو هنا يقرر قاعدة كلية من قواعده الحكيمة، التى تتخلل القصص القرآنى، أو تسبقه أو تتلوه، يقرر قاعدة وحدة الإيمان.. ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى اسلام النفس لله، والإيمان به إيماننا ينبثق منه العمل الصالح، وأن فضل الله ليس حجرا

محجوراً على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين، فى كل زمان وفى كل مكان وكل بحسب دينه الذى كان عليه، حتى تجى الرسالة التالية بالدين الذى يجب أن يصير المؤمنون إليه^(٥٤).

والآيات من (٤٢) حتى (٧٣) من سورة البقرة كلها حكايات عن بنى اسرائيل، تنتهى بهذه المقولة القرآنية التى يختم بها سبحانه وتعالى تصويره لهم فى الآية (٧٤) (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون).

فالحجارة التى يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجذب وأقسى.. هى حجارة لهم بها سابق عهد، فقد رأوا الحجر تنفجر منه اثنتا عشر عيناً، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً! ولكن قلوبهم لاثلين ولا تندى، ولا تنبض بخشيته ولا تقوى.. قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة.. ومن ثم هذا التهديد: (وما الله بغافل عما تعملون)!

وقد طالب الله تعالى المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يأملوا فى اتباع اليهود طريق الحق مشيراً إلى أنهم قد دأبوا منذ القدم على الكذب والتحريف وتكذب طريق الحق، يقول فى الآية (٧٥) من سورة البقرة (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)، وذلك أن موسى عليه السلام اختار بأمر الله سبعين رجلاً من قومه لسماع الوحى ومشاهدة الحال التى يكلمه الله تعالى بها، وقد سمعوا كلام الله تعالى على الوجه الذى لا نعرفه، وإنما نعرف أنهم صحبوه إلى

حيث كان يناجى الله تعالى، وكان من شأن الله تعالى معهم أن يصدقوا بأن ما جاء به موسى عليه السلام هو وحي من الله تعالى، والتصديق بذلك لا يتوقف على معرفة كيفيته وكنهه، فإن أكثر مانصدق به تصديق يقين لا نعرف حقيقته وكنهه ولا كيفية تكوينه وإيجاده. وقد كان من أولئك المختارين أنهم لما رجعوا إلى قومهم حَرَفُوا كلام الله الذى حضروا وحيه وأذعنوا له بأن حرفوه عن وجهه بالتأويل - كما حققه ابن جرير الطبرى وغيره - وهذا التحريف ثابت عندهم منصوب فى التوراة والتاريخ الدينى الذى يسمى التاريخ المقدس (٥٥).

فدل هذا وما سبقه على أن القسوة المانعة من التأثير والتدبير ومكابرة الحق، كانت عادة قديمة فيهم، ثم تأصل فصار طبعا قوميا!

وسجل الله عز وجل فى آياته أنه قد أخذ ميثاقا على بنى اسرائيل بجملة من السلوكيات الأساسية لبناء المجتمع، فإذا بهم يعرضون بعد ذلك عنها باستثناء عدد قليل منهم، يقول فى الآية (٨٣): (وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون).

فواضح أن مظاهر السلوك الإيجابى التى طلبت منهم هى: (٥٦)

١ - أن يعبد الله وحده، ولا يشرك به عبادة أحد سواه من ملك ولا بشر ولا مادونهما.

٢ - بذل ما يجب من الرعاية والعناية للوالدين، ذلك أنه إذا وجب على الإنسان أن يشكر لكل من يساعده على أمر عسير فضله،

ويكافئه بما يليق على حسب الحال فى المساعدة وما كانت به المساعدة، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى وهما اللذان كانا يساعده على كل شئ أيام كان يتعذر عليه كل شئ؟

٣ - قضى نظام الفطرة بأن تكون نعمة القرابة، أقوى من كل نعمة، وصلتها أمتن من كل صلة، فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص.

٤ - ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس (اليتامى والمساكين).

٥ - والأمر بإحسان القول لسائر الناس فليس معناه مجرد التلطف بالقول والمعاملة فى الخطاب، فالحسن هو النافع فى الدين أو الدنيا.

٦ - ثم جاء الأمر بالعبادة مجملاً ليعلم الإنسان أنه مكلف بكل فرد من أفرادها بحسب الطاقة، ولكن من العبادة مالا يهتدى إليه الإنسان إلا بهداية إلهية، وأكبر ذلك النوع، إقامة الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد، وإتاء الزكاة لإصلاح شئون الجماعة.

وفى الآية (٨٧) (... أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتهم وفريقا تقتلون). وفى الآية (٨٨): (وقالوا قلوبنا غلف، بل لعنهم الله بكفرهم فقل قليلا ما يؤمنون)!

فها هنا إشارة إلى مظهر آخر من مظاهر معاداة الحق والتمادى فى الاستكبار إلى الدرجة التى لم تقف بهم عند حد التكذيب لما جاء به

الأنبياء بعد موسى وإنما وصل بهم الأمر إلى حد قتل كثير من الأنبياء، وهم يحتجون بأن قلوبهم (غلف)، أى أنهم لم يكونوا يعقلون قول الرسول ولا ينفذ إلى قلوبهم مفهوماً دعوته.

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال: (بل لعنهم الله بكفرهم)، أى أن قلوبهم ليست غلفاً لاتفهم الحق بطبيعتها، وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين، وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعاً لأهوائهم، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه، فكان ذلك سبباً فى حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين، هذا هو معنى اللعن، وقد ذكرت معه علته ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى فى الأسباب والمسببات، وأن الله لم يظلمهم بهذا، وإنما ظلّموا أنفسهم بالكفر الذى يستتبع الكفر، والمصيان الذى يجر إلى التمادى فى المصيان، كما هى السنة فى أخلاق الإنسان، ولما ذكر اللعن معللاً بالكفر الذى هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة فى أنفسهم، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين بل مؤمنين بالله وكتابه ورسله إليهم استدرك فقال (فقليلًا مایؤمنون)، وإنما العلة فى الايمان باعتبار مایؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة، وبالنسبة إلى اليقين فى الايمان وتحكيمة فى الفكر والوجدان^(٥٧).

— وفى سورة الإسراء الآية (٢)، نجده سبحانه وتعالى يقول: (وأتینا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً). فالكتاب المشار إليه هنا هو التوراة التى وظيفتها الأساسية هدى بني اسرائيل حتى لا يعبدوا أحداً غير الخالق، وهذا التذكير المتتالى فى آيات متعددة، إنما ينبىء بما درج عليه هؤلاء من التنكر

لما هدى إليه واستمراتهم المعصية والجحود، وهم إذا كانوا هكذا مع الله العلى القدير، الخالق الجبار، ومع أنبيائهم، فكيف يكونون مع سائر خلق الله؟!

— وفى الآيات من ٤ - ٨ من نفس السورة يقول عز وجل: (وقضينا إلى بني اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأسا شديدا فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا، ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما عملوا فتيورا. عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا).

يفسر ابن كثير^(٥٨). هذه الآيات بأن الله تعالى قضى إلى بني اسرائيل فى الكتاب الذى أنزله إليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلمون علوا كبيرا، أى يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس.

وقوله (فإذا جاء وعد أولاهما) أى أولى الافسادتين سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولى بأسا شديدا أى قوة وعدة وسلطنة شديدة، تملكوا بلادكم وسلخوا خلال بيوتكم أى بينها ووسطها وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا، وكان وعدا مفعولا.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم من هم؟ والآراء التى سبقت فى هذا السبيل إنما هى (تخمينات) وليس مطلوبا منا (البت) فيها لترجيح أيها أقرب إلى الحق ذلك أننا كما سبق أن أشرنا، فإن الهدف من القصص القرآنى ليس

مجرد السرد التاريخي الذي يلتزم بتحديد الزمان والمكان وإنما هو نتائج ودلالات وعظات، وهذا هو الذي يهتم المؤرخ التريوى بالدرجة الأولى.

ومن هنا فإننا نفهم من هذه الآيات ان الأمة التي لانستقيم فى أفعالها وسلوكها الفردى والجمعى، مهما علت وذاعت شهرة قوتها وعنفتها، فان الله - وفقا لسننه الاجتماعية - لابد أن يسلط عليها من يقهرها ويسومها سوء العذاب.

فإذا ما استطاعت هذه الأمة أن تنهض من كبوتها وتعود سيرتها الأولى من القوة والعزة، فمن المفروض أن تعى نتائج ماحدث لها فى المرة السابقة فتتلاشاه، لكن بنى اسرائيل لم يعوا ماسبق ولم يعدلوا من مسارهم السلوكى فعاودوا الإفساد فى الأرض، فكان حقا أن يعيد الله سبحانه وتعالى الدرس لهم مرة أخرى فيسلط عليهم من يقهرهم مرة ثانية، ثم يلوح لهم بأن هذه السنة التاريخية سوف تظل عاملة فى مسار الوقائع والأحداث (وان عدتم عدنا)!

هوامش الفصل الخامس

- (١) غوستاف لوبون: اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، عيسى البابى الحلبي، ١٩٧٠، ص ١٥.
- (٢) جمال حمدان: اليهود، أنثروبولوجيا، سلسلة المكتبة الثقافية (١٦٩). القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٦٧، ص ٨.
- (٣) المرجع السابق، ص ص ٨ - ٩.
- (٤) المرجع السابق، ص ٩.
- (٥) كامل سعفان: اليهود، تاريخ وعقيدة، القاهرة، دار الفكر العربى، دار الاعتصام، ١٩٨٨، ص ٩.
- (٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٧) المرجع السابق، ص ١٠.
- (٨) زكى شنودة: المجتمع اليهودى، القاهرة، مكتبة الخانجي، د.ت، ص ٢٩.
- (٩) المرجع السابق ص ٩٧.
- (١٠) المرجع السابق، ص ١٠١.
- (١١) محمد العزب موسى: موسى.. مصرى، المكتبة الثقافية، (٢٢٧)، القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٦٩، ص ١٩.
- (١٢) المرجع السابق، ص ٢٠.
- (١٣) زكى شنودة، المجتمع اليهودى، ص ٤١٦.
- (١٤) جمال حمدان، اليهود وأنثروبولوجيا، ص ١١.
- (١٥) ثروت أنيس العيوطى: نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين (الجماعات البدائية وبنو اسرائيل)، القاهرة، دار الكاتب العربى، د.ت ص ١٣١.

- (١٦) المرجع السابق، ص ١٣٢.
- (١٧) المرجع السابق، ص ١٣٣.
- (١٨) كامل سفقان، اليهود: تاريخ وعقيدة، ص ١٨.
- (١٩) المرجع السابق، ص ١٩.
- (٢٠) جمال حمدان، ص ١٦.
- (٢١) ثروت أنيس العيوطي، ص ٢٧٤.
- (٢٢) المرجع السابق، ص ٢٧٦.
- (٢٣) ابراهيم رزقانة وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، ص ٣٥٦.
- (٢٤) ديورانت: قصة الحضارة، م ١، ج ٢، ص ٣٥٦.
- (٢٥) قصة الحضارة، م ١، ج ٢، ص ٣٥٦.
- (٢٦) موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ١٥٦.
- (٢٧) المرجع السابق، ص ٣٦٨.
- (٢٨) ابراهيم رزقانة وآخرون، ص ٣٧١.
- (٢٩) زكي شنودة: المجتمع اليهودي، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.
- (٣٠) لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٧٤.
- (٣١) قصة الحضارة، م ١، ج ٢، ص ٣٨٥.
- (٣٢) المرجع السابق، ص ٣٨٦.
- (٣٣) لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٨٠.
- (٣٤) قصة الحضارة، م ١، ج ٢، ص ٣٩٠.
- (٣٥) زكي شنودة: المجتمع اليهودي، ص ٥٠١.
- (٣٦) المرجع السابق، صفحات متفرقة، ص ٥٠٤ - ٥٠٩.
- (٣٧) المرجع السابق، ص ٥١٢.
- (٣٨) هدى عبد السمیع حجازی : التربية عند العبرانيين قبل التهجير الى بابل وبعد العودة منها، مجلة دراسات تربوية،

- م ٧، ج ٤١، ١٩٩٢، ص ١٥٩.
- (٣٩) عبدالله عبدالنايم، ص ٢٩.
- (٤٠) هدى عبدالسميع، ص ١٦٠.
- (٤١) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (٤٢) أحمد فهمى القطان، ص ١٢٥.
- (٤٣) المرجع السابق، ص ١٢٦.
- (٤٤) المرجع السابق، ص ١٣٥.
- (٤٥) المرجع السابق، ص ١٣٦.
- (٤٦) هدى عبدالسميع، ص ١٦٩.
- (٤٧) المرجع السابق، ص ١٧٠.
- (٤٨) أحمد فهمى القطان، ص ١٣٧.
- (٤٩) هدى عبدالسميع، ص ١٧٣.
- (٥٠) زكى شنودة، ص ٥٢٥.
- (٥١) المرجع السابق، ص ٥٢٦.
- (٥٢) المرجع السابق، ص ٥٢٧.
- (٥٣) سيد قطب: فى ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٢، ج ١، ص ٦٨.
- (٥٤) المرجع السابق، ص ٧٥.
- (٥٥) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ج ١، ص ٢٩٤.
- (٥٦) المرجع السابق، ص ٣٠٣.
- (٥٧) المرجع السابق، ص ٣١٣.
- (٥٨) أبو الفداء اسماعيل بن كثير: تفسير ابن كثير، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١، ج ٣، ص ٢٦.

